أزمة الديمقراطية

في الوطن العربي

مجموعة محاضرات الموسم الثقافي الرابع عشر

١٩٨٣

منشورات رابطة الاجتماعيين - الكويت

ص.ب: ٣٤١٠٠ - العديلية

هاتف: ٢٥١٣٠٤٣ - ٢٥٢٩٢١٢

أزمة الديمقراطية

في الوطن العربي

مجموعة محاضرات الموسم الثقافي الرابع عشر

١٩٨٣

الطبعة الأولى ١٩٨٥

الناشر
رابطة الاجتماعيين ـ الكويت
ص.ب : ٣٤١٠٠ ـ العديلية
هاتف : ٢٥١٣٠٤٣ ٢٥٢٩٢١٢

المحتـــويات

المقدمـة	صفحة
عجز الدول العربية فى المواجهة العسكرية **الدكتور أمين هويدي**	٧
الاستراتيجية الصهيونية فى الوطن العربي واستراتيجية المواجهة العربية **سليم الزعنون**	٢٩
ثقافتنا وهذا الصراع المصيري **الدكتور شاكر مصطفى**	٤٣
دور القوى الوطنية فى مواجهة التحديات **الدكتور فؤاد زكريا**	٧٣
الاستعمار الجديد وأزمة التخلف العربي **الدكتور جورج طعمة**	٨٥
الولايات المتحدة الامريكية والصراع العربي الصهيوني **توفيق أبو بكر**	١٠٩
أزمة الديمقراطية فى الوطن العربي ودور العسكر فيها **الدكتور خلدون النقيب**	١٢٧

أزمة الديمقراطية فى الوطن العربى
الواقع العربى ... والصراع العربى الصهيونى
المقـــدمة

يتضمن هذا الكتاب ، وهو محاضرات الموسم الثقافي الرابع عشر للرابطة ١٩٨٣ ، جوانـب من « الصراع العربي الصهيوني » وجوانب اخرى عن « عجز الواقع العربي » البالغ السوء فى هذه المرحلة عن ادارة هذا الصراع لصالح قضايانا المصيريـة ، وفى مقدمتها حقنـا الثابت فى فلســطين .

وهذا يمثل هاجسنا القومي المشترك ويشغل بال انساننا العربي ويهدده فى وجوده حاضرا ومستقبـلا ، مما يقتضي من كافـة القوى الوطنية والتحررية على مستوى الوطـن العربي بأسره ، البحث الجاد والجهد الحر عن الاسباب والظروف التي اوصلتنا الى ما نحن فيه من تفكك وضعف وتخلف ليكون ذلك هاديا لنا فى تشخيص ومعرفة واقعنا العربي الراهن وتصحيحه ، والخروج برؤية مشتركة لمعالجة قضايانا العربية والمحافظة على مصير أمتنـا المهددة فى كيانهـا وحضارتها فى معركتها الكبرى مع العدو المشتـرك المتمثل فى الصهيونيـة والقوى الامبريالية المساندة لها .

والله الموفـق ،،،

عبد العزيز عبد الله الصرعاوي
رئيس رابطة الاجتماعيين

عجز الدول العربية في المواجهة العسكرية

الدكتور أمين هويدي

أمين حامد هويدي :

تنقل بين القوات المسلحة المصرية ، وبين السلك المدني حيث تقلد أرفع المناصب وتحمل أخطر المسئوليات ، ثم انتقل بعد ذلك الى مرحلة الصحافة والكتابة والبحث .

كان استاذا فى الكلية الحربية ثم فى كليـة اركان الحرب المصرية ورئيسا لقسم الخطط بالعمليات الحربية ثم عمل مستشارا سياسيا للرئيس عبد الناصر ثم سفيرا لبلاده بالمغرب والعراق ثم وزيرا للارشاد القومي وبعد النكسة تقلد وزارة الحربية ورئيسا للمخابرات العامـة ووزيرا للدولة لشئون مجلس الوزراء وبعد موت عبد الناصر فضل عدم الاشتراك فى الحكم واعتقله السادات فيما سمي بحركة مايو ١٩٧١ ثم بعد ذلك تفرغ للكتابة والصحافة .

ساهم في اتمام الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ كما ساهم بعد ذلك في مباحثات الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق والتي انتهت باتفاقية ١٧ ابريل ـ نيسان ١٩٦٣ ، ثم كان عضوا في الوفد المصري فى مؤتمر القمة الاول عـام ١٩٦٤ ثم عضوا فى مجلس الرئاسة ثم في القيادة المشتركة بين مصر والعراق عام ١٩٦٥ .

حاصل على بكالوريوس العلوم العسكريـة المصرية وكلية أركان حرب المصرية وماجستير القيـادة والاركان من أعلى كليـات الولايات المتحدة وماجستير الصحافة والترجمة والنشر من جامعة القاهرة .

اتجه فى ابحاثه نحو « الامن العربي » فكان اول من كتب فيه فى وقت ارتفعت فيه الاصوات بعزلة مصر عن البلاد العربية ولم يسكت صوته فى هذا المجال حتى الان ثم اتجه بعد ذلك للمناداة « بقوة الردع العربية » كوسيلة وحيدة عملية لايقاف المد الصهيوني .

من مؤلفاته : كيف يفكـر زعمـاء الصهيونية ـ الامن العربي فى مواجهة الامن الاسرائيلي ـ اضواء على النكسة وحرب الاستنزاف ـ حروب عبد الناصر ـ أحاديث فى الامن العربي ـ فى السياسة والامن ـ مع عبد الناصر ـ كيسنجر وادارة الصراع الدولي ـ الامن العربـي المستباح ـ كنت سفيرا فى العراق ـ الصراع العربي الاسرائيلي بين الرادع التقليدي والرادع النووي .

الصراع العربى الاسرائيلى منذ عام ١٩٦٧
عجز الدول العربية فى المواجهة العسكرية

١ ـ مقدمـــة :

حينما نتحدث فى الموضوعات الاستراتيجية لا بد وان يكون الحديث دقيقا غاية الدقة ، محددا غاية التحديد . فمثل هذه الموضوعات لا بد من علاجها فى ظل الحقائق الجامدة التي لا تتدخل فيها العاطفة والتي تستبعد العموميات .

وعلى ضوء ذلك فلنا وقفتان مع راس الموضـوع الذي تفضلت اللجنة الثقافية بتحديده لكي نحاول التحدث فيه : ـ

ـ **الوقفة الاولى مع « الدول العربية »** الواردة فى النص . اذ فيها من التعميم ما يجعل عدم تحديده لا يستقيم مع الدقـة المطلوبة فأي الدول العربية نعني وبالتحديد ؟ اذ ان المسرح العربي لم يشاهد انقساما كذلك الذي نشاهده فى السبعينات والـى الآن . فتوترت العلاقـات الثنائية الى حد تبادل الحملات الاعلاميـة المضادة ولدرجـة ارتأت الحكومات المعنية تجميد أو قطـع العلاقات الدبلوماسية بصورة ثنائية أثنتي عشر مرة خلال ١٠ سنوات ففي عام ١٩٧١ قطعت العلاقات بـين كل من :

الجزائر والاردن ، المغرب وليبيا ، السودان والعراق ، سوريا والاردن وفى عام ١٩٧٢ قطعت بين مصر والاردن ، تونس والاردن ، وفى عام ١٩٧٦ قطعت العلاقات بين مصر وسوريا ، السودان وليبيا ثم فى عام ١٩٧٧ بين مصر ولبنان وفى عام ١٩٧٩ بين السودان والعراق وبين سوريا والعراق وليبيا والعراق . هذا بالاضافة الى قطـع العلاقات الدبلوماسية بين مصر وكـل من العراق والجزائـر وسوريا واليمن الديمقراطية فى ديسمبر ١٩٧٧ وقطع باقي الاقطار العربية علاقاتها مع مصر عدا عمان والسودان والصومال فى ابريل ١٩٧٩ .

ولجأت بعض الانظمة العربية علاوة على ذلك الى استخدام اعلى وسائل الصراع هي القوات المسلحة ضد انظمة اخرى ٩ مرات خلال السبعينات فى عام ١٩٧٠ الاردن والمقاومة ، ١٩٧٢ عمان واليمن الديمقراطي واليمنان ، ١٩٧٣ الكويت والعراق ، ١٩٧٥ المقاومة الفلسطينية والاحزاب اللبنانية ١٩٧٦ المغرب والجزائر ، ١٩٧٧ مصر وليبيا ، ١٩٧٨ السعودية واليمن الجنوبية ، ١٩٧٩ اليمنان مرة اخرى.

فالحديث اذن عن « عجز الدول العربية » فيه ظلم للواقع فلم يحدث ان قامت الدول العربية بالمعنى اللفظي والضمني بمواجهة عسكرية او غير عسكرية حتى نتهمها بالعجز والفشل بل تمت المواجهات « قطعة قطعة » او « دولة دولة » لدرجة ان المقاومة الفلسطينية وجدت نفسها وحيدة فى الساحة امام القوات الاسرائيلية وهي تقوم بعملياتها الاخيرة تحت اسم « السلام من أجل الجليل » ..

ـ اما الوقفة الثانية فهي مع المواجهات العسكرية ذلك لان الاستراتيجية العليا كتعريف « ليسدل هارت » لها هي استخدام كل الوسائل السياسية والاقتصادية والنفسية والعسكرية ـ للحصول على الفرض المطلوب ويلاحظ هنا ان الوسيلة العسكرية هي احدى وسائل المواجهة ولا يمكن ان تكون بديلا عن باقي الوسائل ثم يلاحظ ايضا ان هذا التعريف لم يتحدث عن « مواجهة » او « قتال » او « معركة » ولكنه تحدث فقط عن استخدام الوسائل المتاحة للحصول على الفرض اذ ان اعلى مراتب الاستراتيجية هي الحصول على النصر دون قتال او كسب لحرب دون معركة واذا خضناها فلا بد من الحصول على الفرض بأقل خسائر ممكنة .

اذن لا يمكن تقييم المواجهة العسكرية الا فى اطار « المواجهة » ككل اذ ان الوسيلة العسكرية تدخل فى نطاق القوة اما « المواجهة الشاملة » .. فتدخل فى نطاق « القدرة » و « القوة » جزء من « القدرة » ونحن فى واقع الحال نواجه « القدرة الاسرائيلية » كجزء من « القوة العربية » .

ثم التحدث عن « المواجهة العسكرية » منفصلة عن باقي انواع المواجهات لا يتمشى مع طبيعة « الوسيلة العسكرية » الان فهي فى الواقع « وسيلة سياسية » لان ادارة الصراع الان والتعامل مع « الازمة الاقليمية » يجعل من المعركة « مجرد لهجة من لغة الحوار »

فالحوار له لهجاته « الكلمة لهجة » و « الطلقة » لهجة متى نتكلم ؟ ومتى نقاتل ؟ كيف نمزج بين « الكلام » و « القتال » ؟ كل هذا لا بد وان يدخل فى التقييم فمثلا حينما عبرت القوات المصرية القناة فى اكتوبر ١٩٧٣ كان هذا قتالا . ثم طالبت كل الاطراف بايقاف القتال في المواقع الحالية يوم ٨ ، ٩ ، ١٠ اكتوبر كان هذا « كلاما » ولكن القيادة السياسية في ذلك الوقت رفضت التحدث « بلهجة اخرى بديلة » فهل كان هذا صوابا أم خطأ هذا موضوع اخر .

هذا التطور الجديد جعل من القيادة السياسية « صنوا » للقيادة العسكرية في ادارة الصراع دون التدخل في شئونها اذ انها هي التي تقرر متى نتكلم بلهجة دون الاخرى . ومعنى ذلك ان الافضل كان التحدث عن « المواجهة » ولكن ما دام الاختيار وقع على «المواجهة» العسكرية والحديث عنها فاننا سنركز على ذلك مع احتفاظنا بحق العبور الى المجالات الاخرى حيث انه لا فاصل بين المجالات المختلفة في ادارة الصراع والا نكون متفقين مع الاتجاهات الحالية القائمة التي لا تريد استغلال « القدرات العربية » وقصر الصراع على قطاع محدود من المواجهات العسكرية .

وبالرغم من الوقفتين فهناك عجز عربي على المستوى الفردي للدول العربية أو على مستوى العمل الجماعي العربي في المواجهة مع اسرائيل سواء من حيث استخدام القدرة أو القوة .

٢ ـ الأسباب الرئيسية للعجز

الاطار الاستراتيجي للصراع :

ان اهتزاز الاطار الاستراتيجي للصراع يمثل حركة القوى التي تلعب داخل هذا الاطار فهناك خلط ثقيل تضطرب له النفس بين العداوة والصداقة فمن هو العدو ؟ ومن هو الصديق ؟ ففي غياب العدو المشترك او الخطر المشترك يستحيل الوصول الى هدف مشترك. وفي غياب الهدف المشترك لا يمكن الوصول الى خطة مشتركة لان الخطة حينئذ ستكون ضد من ؟ او مع من ؟ او بمن ...

هذه هي الصعوبة الحقيقية التي علينا ان نضعها في اعتبارنا ونحن نناقش مثل هذه الموضوعات الحساسة التي تتعلق بالامن والمصير وخريطة العلاقات الاقليمية معقدة اشد التعقيد فكل الدول العربية ـ عدا مصر ـ في حالة حرب مع اسرائيل . صحيح ان دولا

عربية اخرى في الطريق ولكن يبقى الخلاف قائما هل اسرائيل هي العدو المشترك للجميع ؟ كان ذلك قائما طوال الستينات واوائل السبعينات . ولكن بدأ الموقف كله يتغير بعد حرب اكتوبر ٧٣ فوقعت معاهدة الصلح بين اسرائيل ومصر وها هي لبنان في الطريق وربما الاردن بعد ذلك وحتى قبل هذا الاهتزاز في النظرة الاستراتيجية للعدو المشترك لم يكن هناك اتفاق على اسبقيات القوى المعادية للدول العربية وكان من نتيجة ذلك ان وجدت بعض القوى العربية نفسها في مستنقعات من الصعب الخروج منها .

فالقوات المغربية مشتبكة فى معاركها فى الصحراء ضد البوليساريو ، والى وقت قريب كانت القوات الليبية تقاتل في تشاد .. والقوات العراقية الضخمة مشتبكة مع ايران .. والقوات السورية فى لبنان ، وقوات لبنان يقاتل بعضها البعض .

وفي الوقت الذي تختلف فيه نظرتنا الاستراتيجية الاقليمية فاننا نختلف في نفس الوقت في نظرتنا الاستراتيجية العالمية فاذا كان المثل الذي نعرفه جميعا وهو « عدو عدوي صديقي » يطبق في كل انحاء العالم فانه اصبح في عالمنا العربي « صديق عدوي صديقي » فكل الدول العربية عدا مصر في حالة حرب ـ ولو اسما ـ مع اسرائيل ولكن هذا لم يمنع ان تكون جميعها بما فيها مصر على علاقة وطيدة باسرائيل . هذا من جانب ومن جانب اخر فانه في الوقت الذي لا توجد فيه علاقات بين الاتحاد السوفيتي وبين اسرائيل والتي هى فى حالة حرب مع الدول العربية عدا مصر بمعنى ان كل البلاد العربية بما فيها مصر بل ومضافا اليها اسرائيل على علاقة فاترة سيئة مع الاتحاد السوفيتي وهنا تمكنا ـ نحن العرب ان نغير منطوق « المثل الحائر » مرة اخرى ليكون « عدو عدوى عدوى » وهنا أصبح تنسيق دفع الخطى استراتيجيا لامريكا فى المنطقة . وترتفع الاصوات هنا وهناك باتفاق الاستراتيجيات بيننا وبين الولايات المتحدة او الاتحاد السوفيتي وهذا ليس معقولا فللدول الاعظم مصالحها العالمية التي تشمل كل الكوكب الذي نعيش فيه بل تشمل الكواكب الاخرى ، واختلاف الاستراتيجيات وضع طبيعي في العلاقات الدولية لان المفروض ان الدول تتعامل مع بعضها دون ان تفقد سيادتها وادارتها وعلينا ان نجيب على الاسئلة الآتية : ـ

ـ هل عدونا الرئيسى هو الاتحاد السوفيتي أم اسرائيل ؟

– من يحتل أرضى ويطرد أشقائي ويستوطن أملاكهم ؟ هل هذا صديق أم عدو ؟

– هل الذي يساعد عدوي على احتلال الاراضي وطرد السكان صديق أم عدو ؟

– هل اترك داري وبها الحريق مشتعلا يهدد كل شيء لاذهب لمساعدة جاري فى طرد لص ينوي ان يسرق داره ؟

هل نحن – بقدرتنا المحدودة – قادرون على مواجهة الاتحاد السوفيتي فى صراع لا ناقة لنا فيه ولا جمل ؟

هذه الخلافات الشديدة على المستويين الاقليمي والعالمى مؤشر في طريقة ادارة المواجهة والصراع وتؤثر في سياسة التسليح وتعمل على زيادة حدة الاستقطاب .

غياب التخطيط المشترك :

حتى قبل الاهتزاز الذي حدث فى استراتيجيتنا الاقليمية بتفاوت نظراتنا الى العدو المشترك لم يكن هناك تخطيط مشترك بالمعنى المفهوم الا فى مرحلة قصيرة خلال مؤتمرات القمة التي عقدت فى الستينات مبتدئة بمؤتمر الاسكندرية عام ١٩٦٤م والذي كان من قراراته انشاء القيادة المشتركة مع توزيع الواجبات والمسئوليات واعادة النظر فى تحريك وحشد القوات ، وما تم بعد ذلك كان مشاركة دون تخطيط مسبق مجرد اجراءات انفعالية أوجبتها ظروف طارئة . فالمشاركة التي تمت فى حرب ١٩٦٧م كانت مشاركة انفعالية تحت ضغط التهاب الموقف في المنطقة لم يكن هناك تخطيط كذلك الذي يحدث فى حلف الاطلنطي او حلف وارسو مثلا يشمل كل النواحي من قيادة وتنظيم وتسليح وتدريب وعمليات . وراء تدهور الموقف بعد عام ١٩٧٣م وبعد التناقضات التي حدثت في نظراتنا الاستراتيجية .

المفروض عند الدفاع عن المنطقة العربية ان يتم ذلك فى ظل قيادة آمرة لها اختصاصاتها الواضحة المسيطرة ولها قوات موضوعة تحت قيادتها لتحركها حسب الموقف الأمر الذي لم يتم فى اىوقت من الاوقات .

والشيء الغريب حقيقة انه حتى فى ظل الانحسار العربي الحالى لم تتحرك النفوس لانشاء مثل هذه القيادة ولا هى حاولت ان تخلق المناخ الصالح لذلك . وفى نفس الوقت نجد ان « البنتاجون » يعلن

عن انشاء قيادة في منطقة الشرق الاوسط في مكان ما لقيادة القوات المشتركة للانتشار السريع للدفاع عن المصالح الامريكية في المنطقة . هذا يتم من جانب الغرباء في الوقت الذي تعذر فيه ذلك بالنسبة لنا في الماضي أو الحاضر لا لمجرد الدفاع عن المصالح ولكن للدفاع عن الارض والحياة والمصير .

بل مما يثير الدهشة حقيقة أنه لم يتم في وقت من الاوقات مناورات مشتركة بين القوات العربية مما يزيد معرفة هذه القوات بعضها ببعض وبأساليبها وعقائدها لتسهيل المشاركة المجدية وقت العمليات الفعلية في حين شهدت الاسابيع الماضية سلسلة من التدريبات القتالية نفذت بواسطة وحدات أمريكية وفرنسية على شكل عمليات برية وبحرية وجوية بالاشتراك مع وحدات عربية وقد غلفت هذه التدريبات بالصمت العربي على عكس ما حدث في مناورات « النجم الساطع١ ، والنجم الساطع٢ » في مصر حيث صاحبتها مظاهرة اعلامية ضخمة وعلى سبيل المثال : ـ

* في الفترة من ٩ ـ ١٢/١١/١٩٨٢م تم في خليج الحسمه على الساحل المغربي الشمالي عمليات انزال بر مائية بقوات مشتركة أمريكية مغربية تحت غطاء جوي ولوحظ ان القوات الامريكية المشتركة في هذه المناورة تابعة للوحدة ٣٢ التي شكلت من قبل طليعة القوات الامريكية العاملة تحت لواء قوات حفظ السلام المتعددة الجنسيات في لبنان قبل استبدالها بوحدة أخرى .

* في يومي ٢٥ ، ٢٦/١١/١٩٨٢م قامت حاملة الطائرات الفرنسية « كليمانصو » والفرقاطة الفرنسية حاملة الصواريخ « دوكان » بتمرين قتالي اسمه الكودى « دوفان » على الساحل المغربي بمشاركة أسراب الميراج ـ ١ ، ف ـ ٥ تايجى المغربية .

* في ٣/١٢/١٩٨٣م تحت مناورة أمريكية اسمها Jade T ger

ذات ثلاث شعب الاولى في عمان وهى عملية انزال بري تحت غطاء جوى ، الثانية في بربرة بالصومال وهي عملية مشتركة اي بحرية جوية برية بالاشتراك مع السلاح الجوى الصومالي ، والثالثة تمت بقوات أمريكية سودانية في السودان .

* تقوم القوات الامريكية لحفظ السلام المتمركزة في لبنان بالاشتراك مع القوات اللبنانية بتدريبات متتالية عن عمليات الاقتحام بواسطة طائرات الهليكوبتر وزوارق الانزال .

* اعلن وزير الحربية المصري عن مناورة امريكية مصرية ستتم خلال عام ١٩٨٣م علاوة على المناورات التي تمت من قبل .

اذن فالقوات الامريكية الغريبة عن المنطقة وفى سبيل الدفاع عن مصالحها انشأت قيادة فى المنطقة ورضينا بذلك ، واقدمت على الحصول على تسهيلات وقواعد واعطيناها ما تريد في سخاء ، وتمركزت فى بعض الاماكن دون حساسية من جانبنا ودون شك فى النوايا ، ثم قامت بتدريبات مشتركة البعض أعلن عنه والبعض يتم دون الاعلان والمعروف ان العدو من وجهة نظرة الولايات المتحدة هو الاتحاد السوفيتي.

ولكن للاسف هذا لم يتم ابدا بين البلاد العربية حتى فى الاوقات القصيرة التي انشئت فيها قيادات مشتركة لم يوضع تحت يدها القوات اللازمة وخشيت كل الانظمة من تمركز الوحدات العربية فى اراضيها منعا لبعض الخطط الموضوعة خوفا على نفسها ولم تقم الجيوش العربية بعمليات مشتركة الا حينما قاتلت بعضها . هذا التقصير تم وما زال يتم حتى بعد ان أصبح العدو يصول ويجول فى المنطقة دون رادع .

ثم بعد ذلك قد يقول قائل ان ما تم فى حرب اكتوبر على الجبهتين السورية والمصرية هو عمل مشترك تم بقيادة مشتركة هذا الكلام غير دقيق يمكن ان يسمى : عمل تم فى وقت واحد بناء على اتفاق مسبق.. ذلك لان العمل المشترك الوحيد كان في تحديد بداية توقيت العمليات وبعد ذلك سارت الامور دون تخطيط او ادارة مشتركة فكان القتال على جبهتين منفصلتين لايربطهما رابط من تنسيق وكانت النتيجة ان القوات الاسرائيلية ثبتت الجبهة الجنوبية حتى تقضى على الهجوم في الشمال ومن ثم ــ وبعد ان تم لها ذلك نقلت قواتها جميعا الى الجنوب ثم ادير الصراع بعد ذلك بقيادات منفصلة فكان الخلاف على كل شيء بين الجبهتين حتى فى ايقاف النيران وقبوله وهذا يقودنا الى موضوع اخطر وهو مفهوم ادارة الصراع .

الفهم الخاطىء لادارة الصراع :

أولا ما هو الصراع ؟ التعريف المتداول للصراع هو انه تصادم ارادات وقوى خصمين او اكثر يكون هدف كل طرف من الاطراف تحطيم الآخر جزئيا أو كليا حتى تتحكم ارادته فى ارادة الخصم وبذلك ينتهي الصراع بما يحقق أهدافه وأغراضه .

الا ان اتجاه هذا التعريف الى ضرورة « تحطيم الارادات » أمر لا يتم فى الوقت الحالي لان الارادة لا يمكن تحطيمها الا فى ظل توازن قوى مختل هذا الاختلال شيء قابل للتعديل بزوال الظروف المسببة له ، كما أن الصراعات الاقليمية تطورت لتصبح صراعات اقليمية عالمية .

وعلاوة على ذلك فان هذا التعريف ينتهي بالصراع ليحقق أهداف وأغراض الطرف الذي حطم ارادة خصمه وهذا ارضيا لا يمكن تحقيقه فى ظل الصراعات الحالية التي تتعامل مع ارادات ناقصة تسعى الى تحقيق اغراض ناقصة أي ينتهي الصراع الى نقطة وسط بين الانتصار والهزيمة .

اذن فيكون التعريف الاوقع والاعقل هو أن الصراع هو تصادم ارادات ... وقوى خصمين او اكثر يكون فيه هدف كل من الاطراف تلبية ارادة الآخر حتى ينتهي الصراع بما يحقق الاهداف والاغراض الرئيسية للاطراف المتصارعة .

ولكن ماهو الفرض النهائي من الصراع ؟ الفرض النهائي هو الوصول الى اتفاق مع ملاحظة ان الصراع هو اجراء وقتي وكذلك الاتفاق لان مصلحة اليوم التي يتم عليها الاتفاق قد تتغير فى الغد . فكان مشروع التقسيم فى فلسطين مرفوضا فى الاربعينات ولكن البعض فى الثمانينات يتمنون تحقيقه هذا فى الجانب العربي أما فى الجانب الاسرائيلي فكان مشروع التقسيم أولا فى الاربعينات ولكنه مرفوض بالقطع لدى الجميع فى الثمانينات .

اذن فنهاية الصراع تسوية . وعلينا ونحن نديره ان نتذكر ان التسوية تعبر عن قوة الموقعين عليها وقدرتهم . صحيح كان الامل ان تعبر التسوية عن توازن المصالح ولكن هذا لا يمكن ان يتم الا فى ظل

توازن القوى . وادارة الصراع ترتيبا على ذلك لا تعرف « المطلق » ... لا تعرف « الابيض » كما انها لا تعرف « الاسود » انها شيء وسط ... مزيج ينتج عنه اللون الرمادي . وعلى من يدير الصراع تذكر ذلك دائما على الا ينسى مصلحة القوتين الاعظم وتأثيرهما فهما هناك فى كل ما على ساحة الصراع . بدليل انه يمكن لأي دولة من دول المنطقة ان تبدأ قتالا فى أي وقت وفى اي مكان وبأي صورة ولكن بمجرد ان يتم ذلك فان الدول الاقليمية تفقد مبادأتها فلا يمكنها انهاء القتال لا فى الوقت المحدد ولا فى الصورة المرجوة . وأمامنا مثل على ذلك العراق وايران ، وحرب اكتوبـــر .

اذن فادارة الصراع التي يكون القتال جانبا منها ادارة سياسيـة بالدرجة الاولى . وهي فى الوقت نفسه لا تعرف القتال فقط ولا تعرف التفاوض فقط . انها تقاتل وتتكلم ... قتال قتال كلام كلام . فليس صحيحا ان القوات المسلحة ينتهي عملها بمجرد بدء المفاوضات لان قوة دفع التفاوض لا تتم الا بضغط القوة سواء وهي ساكنة لا تستخدم أو وهي متحركة فى حالة القتال فعلا . وليس صحيحا أيضا ان « الحديث » ينقطع اذا بدأ القتال فالقنوات لا بد ان تكون مفتوحة والآذان مستعدة لتلقي الرسائل ودراستها بجدية والا ضاعت الفرص وتعقدت الامور .

والصراع لا يمكن ادارته الا وهو مرتكن على القوة والا يصبح صراعا من جانب واحد . فالمفاوضة التي تتم فى معزل عن القوة مفاوضة بلا انياب لان التفاوض بين ارادات كما هو الحال فى القتـــال . والارادة « قدرة » تكون « القوة » احدى دعائمها فالقدرة أوراق عديدة محسوبة بدقة لان مجموع هذه الاوراق هي التي تشكل الارادة ودولة بلا أوراق هي دولة بلا ارادة والمواجهة العسكرية التي تفقد الارادة هي عمل طائش لا يجوز اللجوء اليه . لان القوات المسلحة لعبـة خطيرة جدا لا يجوز الاقتراب منها الا بعد حسابات دقيقة للغاية والا كان المردود كارثة .

والعمود الفقري للصراع هو ما يسمى بالردع وهو فن الحصول على الاغراض المرتكز على القوة دون استخدامها . أو هو فن الحصول على الاغراض بالتهديد باستخدام وسائل الحرب بدون اعلانهـــا وسر العربدة الاسرائيلية الآن هو افتقارنا للردع اذ ان « الردع » يحول دون هذه العربدة ، ويحول دون تثبيت الامر الواقع ، ويمنع قيامها بالمذابح ، والفكرة الاساسية فى الردع هو فى القدرة على الرد . القدرة على توجيه الضربة الثانية . لأن العدو لا يمكن ان يوجه « الضربة الاولى » اذا عرف

انه سيعاقب بضربة ثانية والقوة المخصصة للردع هي غير القوة المخصصة لواجبات دفاعية او هجومية هي قوة موزعة مؤقتة قادرة على ضرب العدو من العمق . قادرة على عقابه بضرب أغراض محددة ومدروسة من قبل .

هذا الموضوع فى غاية الاهمية لانه ينقلنا الى موضوع اعداد القوات.

الارتجال فى اعداد القوات العربية :

بعد حرب كتوبر ١٩٧٣ والمنطقة يسودها قانون رهيب غير معمول به فى أي صراع اقليمي فى الكوكب الذي نعيش فيه هذا القانون هو اعطاء اسرائيل الحق لنفسها فى تحديد المستوى التكنولوجي فى المنطقة وهي لا تريد للدول الاقليمية بأن تتعدى خطا معينا فى مجال التكنولوجيا بدعوى ان ذلك يهدد أمنها .

امامنا مثلا ضرب المفاعل العراقي « أوزاريك » فى ٧ يونيو ١٩٨٠ قامت اسرائيل باختراق المجالات الجوية لبعض الدول ثم اخترقت الحدود السياسية لدولة ذات سيادة وهي العراق رأسيا وضربت مدينتها الذرية واعلن مناحيم بيجن انه سوف يضرب أي منشآت ذرية اخرى فى أي بلد يهدد امن اسرائيل وهذه رسالة لنا جميعا . الشيء الغريب ان هذا تم دون رد فعل من العراق او من العرب . ذلك اننا نفتقر الى « الرادع » الذي يردع هذه « العربدة » ويوقع العقاب .

وانتقلنا بعد ذلك الى مرحلة اخرى . فاسرائيل غاضبة لان سوريا تسلحت بالصاروخ سام ٥ ـ وهو صاروخ أرض جو . دفاعي بدعوى ان هذا الصاروخ بالنسبة لمداه الطويل سيحرمها من تحليق طائراتها فى دائرة معينة مما يهدد أمنها وهددت بضرب قواعد الصواريخ السورية فى سهل البقاع من قبل ، لماذا تفعل اسرائيل ذلك ؟ لاننا نفتقر الى الردع .

ما هي الرسالة التي تريد اسرائيل ابلاغها لنا ؟ هي تريد ان تقول انها الدولة الاقليمية العظمى ولن تسمح ابدا بان ينازعها احد هذا المركز وفى ظل هذا المبدأ الخطير تعيد تشكيل الحدود السياسية للمنطقة بدعوى « الحدود الامنة » وتعزز السلام الردىء الذى لا يحقق الا مصلحتها .

لكن ما هو الدرس الذي نأخذه من هذا الموقف الصعب الـذي وصلنا اليه ان طوق النجاة لنا ـ نحن العرب ـ لايقاف هـذا المد الاسرائيلي عند حده هو فى تملك « قوة الردع » ومفتاح الموقف كلـه فى تملكنا « للرادع التقليدي » لانه فى ظل او تحت مظلة تقليدية « يمكننا أن نبني رادعا تقليديا مؤثرا . بل وفى ظل المظلة التقليدية يمكننا ان نحصل على « رادع نووي » وفى المرحلة التي وصلنا اليها أحب ان أؤكـد انـه بدون هذا « الرادع التقليدي » سوف يتعذر علينا بنـاء قواتنا التقليدية أو الذرية وسوف ندفع دائمـا امـا الى قبـول الامر الواقع او الـى التورط فى مواجهـات خـاسرة . أو بمعنى آخر سـوف نسـاق امـا الى قبـول السيطرة الاسرائيلية عـلى منطقتنـا كلهـا أو الانتحـار . وأظن ان الامرين يضعانا فى موقف المستجير من الرمضاء بالنار .

ولكن من الذي وضعنا فى هذا الموقف ؟ نحن . ولا يجوز ان نلقي بأخطائنا على غيرنـا . فلن يحافظ على أمننـا الا نحن ولن يحافظ على حاضرنـا ومستقبلنا الا نحن .

فالولايات المتحـدة الامريكيـة تصر على ان يكون توازن القـوى فى صالح اسرائيل فى مواجهـة كل البلاد العربيـة ووسيلتهـا فى ذلـك هي سياستها فى تصدير السلاح . والتعامل فى هذه السوق الداهية يحتاج الى وعي وقـوة ارادة واتبـاع نظـام تبادل المصالح . لان تجارة الاسلحـة اقرب الـى السياسـة منهـا الى التجارة ، فعلاوة عـلى الفجوة العددية بيننـا وبين اسرائيل تصر الولايات المتحدة على الفجوة التكنولوجية اذ تصدر أكثر المعدات والاسلحـة الى اسرائيل تحت شعار كاذب هـو انـه لا يجوز للاسلحـة الامريكية ان تحني رأسها للاسلحة السوفيتية متجاهلة ان معظم الدول العربيـة لديهـا ترسانات امريكية. وفي الحقيقة فان تصدير السـلاح الامريكي الـى العرب هـو وسيلة لتخفيض تكلفة الانتـاج للسـلاح الامريكي من جانب ولاعـادة تدوير استخدام الدولار النفطي من جانب آخر . اذ تبعا للاحصائيات الامريكية فان بليون دولار من صـادرات الاسلحـة توفر للبنتاجون ٧٠ مليـون دولار فى تكلفة الانتـاج . ومعنى ذلـك ان البنتاجون ينزع ٧٠٠ مليون دولار خفضا فى انتـاج اسلحته من صادراتـه للسعودية وحدها فى عام واحد والتي تبلغ حوالي ١٠ ملايين دولار بعد نـزع الوسائـل التكنولوجية والالكترونية منها .

والتوجيهات الرئاسية الصادرة عن البيت الابيض فى ٨١/٧/٨ تؤكد « ان تصدير السلاح ومعدات الدفاع هي عنصر حيوي من سياستنا الدفاعية العالمية وأداة رئيسية لسياستنا الخارجية ... وان المعدات الممتازة لا تلائم احتياجات كثير من الدول وهذا يؤدي الى ضرورة اجراء تعديلات على المعدات العسكرية المصدرة الى الاسواق الخارجية » بل نجد ان هذه التوجيهات الرئاسية تنص صراحة على استخدام تصدير السلاح فى فرض الاستقرار الاقليمي مما يفسر ما يجري حاليا وهاكم النص الذي يؤيد ذلك ان تصدير السلاح الى الخارج كثيرا ما يكون بهدف اظهار ان الولايات المتحدة تؤمن اصدقاءها وشركاءها والا تسمح بأن يكونوا فى موقف ضعف كما تهدف سياستها فى تصدير الاسلحة الى استتباب الامن والاستقرار الاقليمي والداخلي . وبذلك تفتح الطرق الى تشجيع الحلول السلمية للصراعات مع التأكد ان تصدير السلاح يخدم السياسة الامريكية ومصالحها فى فرض الاستقرار فى المناطق التي تتناقض فيها اغراض الدول الصديقة للولايات المتحدة مع بعضها .

ونتيجة لهذه السياسة ولانحياز الولايات المتحدة انحيازا كاملا لاسرائيل مما يقيد قدرتها على التحرك لتحقيق سياسات عادلة فاننا نجد انفسنا أمام ثلاث ارادات متناقضة على الساحة

ارادة أمريكية مقيـــدة
وارادة اسرائيلية شاردة جامحة مسيطرة
وارادة عربية غائبة عاجـــزة

ونحن نعرف ذلك . فما الذي فعلناه لتصحيح هذه الاوضاع التي أوجدتنا فى حالة من الخلل الجسيم فى توازن القوى ؟

ولكن هناك عاملا مهما للغاية فى موضوع خلل التوازن اذ أنه لا يتم نتيجة للفجوة العددية أو للفجوة النوعية فحسب ولكنه يتم أكثر نتيجة للفجوة المعنوية فوجود الرادع وهو العامل المادي لا يحل المشكلة ولكن العامل الحاسم هو فى العزيمة على استخدامه دون تردد . وهنـــاك فجوة كبيرة فى هذا المجال ينجم عنها الخوف وتقوقع الارادة فى مواجهة العدو . علما بأن القوة الصغيرة قادرة على ردع القوة الكبيرة اذا اتبعنا قانونا هاما فى الصراع هو ان ردع العدوان الصغير يمنع العدوان الكبير والرادع الاصغر أكثر مصداقية من الرادع الأكبر .

اذا كان هذا هو حال الولايات المتحدة الامريكية معنا ، واذا كنـا نقبل منها هذا التعامل ، ونتعامل معها معاملة مـــن يطلب الحمايـــة فذنب من يكون هذا الوضع ؟؟.

واذا كان لدينا الرادع التقليدي على المستويات القطرية ، واذا كان فى استطاعتنا مضاعفته من الناحية العددية والكمية فى اطار العمل العربي الجماعى ولكن لا نفعل ذلك فخطأ من يكون هذا الموقف ؟ .

واذا كنا لا نواجه القوة المعادية ونخشاها ونبتعد عنها ونرتدع من عقابها على مبدأ « كل ينجو بجلده » او « ان الخطر بعيد هناك » فجريرة من يكون هذا الخضوع .

واذا كان تحت أيدينا الاوراق والوسائل لكي نجعل سوق السلاح اقرب الى التجارة منه الى السياسة ، واذا كان لدينـــا القـــدرات ليصبح السلاح اقرب لان يكون تحت سيطـــرة مستخدمه من أن يكون تحت سيطرة صانعه فما الذي يحول بيننا وبين ان ننفذ ذلك ؟...

ولا يمكن بعد كل ذلك ان نطمئن على مستقبلنا وامننـــا الا بوجود « كلب الحراسة » يحرسنا ونحن نسير فى الغابة التي يطلقون عليهـــا

اسم السياسة « وكلب الحراسة » هو القوة المرتكنة على القدرة ونحن نعلم ان القوة طبيعتها الانتشار حتى تصطدم بقوة اخرى توقفها عند حدها وقد انتشرت القوة الاسرائيلية فى كل اتجاه لانهاء لم تجد القوة التي توقفها أولا تمهيدا لاجبارها على الارتداد .

ان الذي يمنع انتشار القوات الاسرائيلية واحتلالها اراضينا وتثبيت الامر الواقع الجديد هو « الردع » أي « وسيلة العقاب » مستخدمين المزايا العديدة التي تهيئها لنا اتساع المساحة وغور العمق مما يقلل من تأثير الضربة الاولى الاسرائيلية وتكسبنا القدرة على امتصاصها وتفسح لنا المجال فى نفس الوقت لتوجيه الضربة الثانية . لو توفر ذلك لنا لاعاد العدو حساباته ولتردد الف مرة قبل ان يتصرف بهذه الوقاحة امام عجز لن يتكرر في التاريخ .

هذا بخصوص ايقاف انتشار القوة الاسرائيلية اما عن اجبارها على الارتداد لاعادة الامر الواقع الى ما كان عليه فلن يتم « بالمعركة » اي باستخدام القوة المرتكنة على القدرة . والفرض الآن ــ وفى ظل المتغيرات الحالية ــ من المعركة هو الحصول على « الموقف الاستراتيجي الحاسم وليس كما يقال تحريك او تحرير ولكن ما هو الموقف الاستراتيجي الحاسم ؟ .

اذا سلمنا ان الفرض من الحرب هو الوصول الى حالة سلم افضل واذا سلمنا ان نتيجة الحرب هي حصيلة بعض المعارك وربما تكون بعضها خاسرة وربما تكون بعضها رابحة .

فاننا لن نصل الى حالة السلم الافضل الا بتوقف المعركة ونحن فى الموقف الاستراتيجي الحاسم وهو الموقف الذي يحقق لنا القدرة ونحن على مائدة المفاوضات بحيث نصل الى اتفاقية عاملة تحقق توازن المصالح فى ظل توازن القوى وفى الوقت نفسه يهيىء لنا الانتصار الخاطف لو استؤنف القتال مرة أخرى (١) . وهذا ما تفعله اسرائيل فلقد انتهت حرب ١٩٧٣ وهى فى هذا الموقف الاستراتيجى الحاسم فكان اتفاق النقاط الست فى الكيلو ١٠١ وما تلاه من اتفاقيات فك الاشتباك ثم زيارة القدس ثم اتفاقيات كامب ديفيد . ولقد انتهت عملية السلام من اجل الى اجل وهى

---

(١) من رأيي ان ما يقوله بعض الساسة والقادة العسكريون من اننا يجب ان نخوض معركة طويلة الامد مع اسرائيل اصبح لا يتفق مع المتغيرات الحالية اذ ان الفترة الطويلة تسمح بالامدادات ان تصل الى اسرائيل وكذلك المتطوعين وامامنا ما حدث فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ .

فى هذا الموقف الاستراتيجى الحاسم وهى تملى ارادتهـا الان فى لبنان وستملى ارادتها بعد لبنان .

الامن القومى والتأمين الذاتى :

من اقوى القيود الضاغطة هـو الخلط بـين « الامـن القومي » «والتأمين الذاتى» فالامن القومي هو عبارة عن الاجراءات التى تتخذها الدولة فى حدود طاقتها للحفاظ على كيانها ومصالحها فى الحاضر والمستقبل مع مراعاة المتغيرات الدولية ويلاحظ ان هذا التعريف يتضمن الاتى : ـ

١ ـ الاجراءات التى تتخذها الدولة تشمل كل المجالات : الاقتصادية والدفاعية وكل نواحى نشاط الدولة فالامن كل لا يتجزأ .

٢ ـ تكون الاجراءات فى داخل طاقة الدولة اذ ان تجاوز الامـل الامكانات المتاحة يقود الى التهلكة . اذ يجب ان يكون الغرض فى حدود الامكانات المتاحة .

٣ ـ يكون التخطيط للحاضر او المستقبل القريب والبعيد .

٤ ـ مراعاة المتغيرات الدولية .

ولذلك فان الامن القومى يشمل الامن العسكرى فالاخير جزء منه ومجال الامن العسكري هو الاستراتيجية العليا ووسيلة الامن العسكري هى الحرب التكنولوجية اما وسيلة الامن القومى فهى حرب التكنولوجيا .

اما التأمين الذاتى فهو تأمين نظام من النظم السياسية ، أو تأمين فرد وتعزيز سلطانه .

ولنأخذ القوات المسلحة مثلا فأمن هذه القوات يعني : وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب فاهم منصب فى الدولة هو منصب قائد الوحدة الذى يتوقف عليه فى النهاية حماية الدولة ، تفـرغ العسكريين لاعداد انفسهم لان الجيش لو تعدى حدوده لاختلطت الامور وهبط مستواه ، امداد القوات المسلحة بأفضل انواع المعدات والاسلحة ، تجهيز مسرح العمليات ، انشاء الصناعات الحربية التى تعتمـد عـلى البحث العلمى المتطور ، زيادة سرعة معدل التغيير التكنولوجى .

وباختصار جعل القوات المسلحة الـدرع الواقى لحماية البـلاد والادارة الفعالة لتحقيق اهدافها .

أما تأمين القوات المسلحة فمعناه قصر واجباتها على حماية النظام أو الفرد أو الحزب وذلك بالآتي: شغل المراكز الحساسة واجراء التنقلات

على اساس الولاء للوطن ، تنقلات الافراد والوحدات تتم بغرض التأمين وليس لتنفيذ الخطط الاستراتيجية ، الخوف من تسليح القوات تسليحا سليما ، عدم صرف مرتبات الذخيرة او اجراء التدريبات المطلوبة .

وبذلك فان القيادة السياسية اذا غلبت التأمين على الامن فان الامن القومى يتأثر لهبوط المستوى وبذلك تخضع الدولة للابتزاز السياسى والتنازل عن الحقوق المشروعة الذى يؤدى الى التفريط مما يؤثر بصفة مباشرة على المصالح الوطنية والقومية .

والامن القومي هو أمن الدولة ومن فيها، ومن حق هؤلاء ان يطمئنوا على امنهم ولذلك يجب ان نناقش خطط وترتيبات الامن مناقشات واعية فى المجالس الشعبية وفى وسائل الاعلام المختلفة ولا يجوز التستر وراء شعار السرية للحيلولة دون ذلك .

امور معقدة اشد التعقيد . فالمواجهة العسكرية ليست دبابة ضد دبابة او طائرة ضد طائرةاو عملا فدائيا ضد قوات نظامية، ولكنها كل هذا مع بعضه البعض مضافا اليه عوامل اخرى كثيرة الامر الذى يحتاج الى الربان الماهر الذى يقود سفينة وسط هذه العاصفة الهوجاء ويجنبها الاصطدام ثم الغرق ليصبح بعد ذلك طعاما شهيا للحيتان .

٣ ـ نظرة مستقبلية

والحديث جولة خاطفة فى دروب موضوع شائك معقد لا اظن اننا اعطيناه حقه من البحث لانه موضوع يجب علينا جميعا ان نداوم على بحثه والتنقيب فيه وهو موضوع يتسع للجهود المدنية والسياسية والعسكرية لانه فى واقع الامر موضوع سياسي من صلب اختصاصات وزارات الخارجية فى البلاد العربية .

وما عاد هناك متسع امامي الا ان اضع امامكم بعض النقاط الهامة الاتيـة : ـ

١ ـ المواجهة العسكرية او مواجهة القوة للقوة يجب ان ترتكز على اعمال القدرة فهى جزء من كل . والبلاد العربية وللاسف الشديد جمدت قدراتها فعجزت قوتها ووهنت وضعفت .

٢ ـ الارادة العربية تجمدت وتوقفت ولا أقول انها انتهت لان الارادة لا تنتهى وقد تم ذلك نتيجة لظروف من صنعنا فقد خلقناها وكرسناها وليس هناك فى مقدور احد ان يصحح الوضع الا نحن .

٣ ــ لا بد من النظر الى الصراع سواء فى مراحله الماضية او الحاضرة او المستقبلية من خلال « توازن القوى » وتوازن القدرات فى ظل الخلل فى محصلة القدرة والقوى لن يتم الا اتفاقيات رديئة تعبر عن توازن القوى او الخلل فيه وتتجاهل توازن المصالح . مثل هذه الاتفاقيات موقتة لان توازن القوى متغير غير ثابت .

٤ ــ ان علاج الموقف واسترداد الارادة لن يتم الا بتوفر قوة«الردع» ولا يعنى ذلك القوة المادية بل الى جانب ذلك يجب توفر « القوة المعنوية » المتمثلة فى توفر العزيمة على استخدام القوة والقدرة المتاحة فتوفر القوة لا يحل المشكلة ولكن يكمن الحل فى الاقدام على استخدامها .

٥ ــ لا عذر لبعض الاقطار من الا يكون لها القدرة على الردع حتى فى ظل غياب العمل العربى الجماعى مثل مصر وسوريا والعراق والسعودية والجزائر والمغرب كما انه لا عذر للانظمة العربية فى عدم التحرك داخل العمل الجماعى العربى لان مجرد الانتقال الى هذه الخطوة يعيد توازن القوى الى وضعه الطبيعى ويحقق الردع وفى الحال .

٦ ــ لا تجوز للخلافات العربية ان تؤثر فى موضوع الامن القومى بل يجب ان نرتفع الى مستوى فصل موضوعات الامن عن الخلافات الجارية ولن يتم ذلك الا فى اطار التوافق الاستراتيجى العاقل المتجرد الذى يؤمن بتوزيع الادوار ومالم يتم ذلك فان العام الحالى سوف يشهد النكسة الثقيلة اذ من الملموس ان الجميع يسارعون الى الانتهاء من المشكلة تحت ستار مبادرات غامضة فى ظل غياب الارادة العربية وكما نعرف فان الصراع هو صراع ارادات .

٧ ــ لا بد من اعادة التوازن عن طريق اعمال القدرة الى جانب القوة وعن طريق العمل الجاد وجعل سوق السلاح تجارة اكثر من سياسة ، ولجعل ولاء السلاح وهو فى يدنا اكثر من ولائه للمنبع .

٨ ــ المواجهة العسكرية ليست مواجهة دبابة بدبابة ولا طائرة بطائرة ولكن الموضوع مواجهة ايرادات والذي يصرخ ألما قبل خصمه يفقد الجولة ويكاد صراخنا يملأ الاذان .

وكل من الموضوعات المطروحة تحتاج الى كتا ب.
ولعلى اكون قد وفقت ،،،

الاستراتيجية الصهيونية في الوطن العربي
واستراتيجية المواجهة العربية

سليم الزعنون

الاستراتيجية الصهيونية فى الوطن العربى
واستراتيجية المواجهة العربية

شبه احد مفكرى الثورة الجزائرية وضع الشعب الجزائرى امام الاستعمار الفرنسى بمثل العصفور الذى تقترب منه الحية وقد صوبت اليه اشعة الخوف من عينيها فوقف لا يفعل شيئا امام زحفها نحوه ... صحيح هو اقل منها قدرة على المواجهة .. ولكنه لو تذكر ان له جناحين يستطيع بهما ان يطير .... لكان بامكانه افشال هجومها وهكذا كانت مهمة الثوريين فى الجزائر اقناع الشعب او العصفور بانه قادر بالاسلوب الثورى ان يتخلص من الاستعمار الفرنسى ويحصل على استقلاله .

والشعب العربى له اكثر من جناح وفيه اكثر من قدرة ولكنه ومع الاسف بقي جامدا امام زحف الصهيونية والامبريالية حتى التهمت فلسطين واجزاء من الوطن العربى وها هى تنفذ ما تريد فى لبنان وبعد ذلك ستتوجه نحو الاردن او سوريا او نحوهما معا لتحقق ما قاله بيفن لا بد ان نصل يوما ما الى ضم الجزء الشرقى من دولة اسرائيل الى الجزء الغربى الذى تسيطر عليه حاليا ويقصد بذلك شرق الاردن .

وجدير بالملاحظة ان ما نواجهه اليوم ليس استعمارا عاديا كالذى ابتليت به امم قبلنا وتخلصت منه ... انه عدوان استعمارى استيطانى اجلائى يغتصب الاراضى العربية ويعمل على محو هويتها وتدمير حضارتها وسبيله فى ذلك العنف ولا يتورع عن استعمال الارهاب والقتل ولا يتقيد بالاخلاق المتعارف عليها لدى الشعوب المتحضرة عندما يريد اغتصاب حقوق الاخرين او تحقيق مصالحه .

وما ابتلينا به ليس عدوانا صهيونيا ولكنه فى الواقع مقترن بعدوان امبريالى اوربى وامريكى .. التقيا على الطريق .. لتحقيق مصالح مشتركة فى وطننا العربى فكان لكل منهما وظيفة ودور يقوم به فى ظل تحالف وثيق ربما كان اوضح تعبير عنه مذكرة التفاهم او التعاون الاستراتيجى التى اعلنت بين الولايات المتحدة ودولة اسرائيل .

لقد ظل اليهود يذكرون العودة الى صهيون فى صلواتهم ولم يكن تعلقهم بفلسطين له اى بعد سياسى ولم يخرج عن نطاق الاهتمام اللاهوتى اما الصهيونية كحركة سياسية حديثة فانها مستوحاة من الفكر السياسى الاوربى واتجاهاته الاستعمارية وما كان لها ان تتطلع الى اغتصاب فلسطين واقامة كيان عنصرى عدوانى الا بدفع اوربى لتحقيق اهداف الامبريالية الغربية منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وهكذا لم تجد الامبريالية الغربية خيرا من الصهيونية كي تنشىء قاعدة او دولة لها فى قلب العالم العربى ولم يجد زعماء الصهيونية خيرا من الامبريالية الغربية عطاء وسندا لتحقيق اهدافهم الخاصة لذلك فان دولة اسرائيل تمثل قاعدة لازمة لاستمرار السيطرة الاستعمارية على المنطقة العربية لنهب خيراتها اولا بأول . والمليارات الثلاثة التى تدفعها امريكا سنويا ليس كما يعتقد البعض انها مساعدات من دولة غنية لبعض الدول الفقيرة .. ولكنها الاجر الذى تتقاضاه اسرائيل مقابل الاستمرار فى دورها ووظيفتها المرسومة لهـا .

هذه المقدمة لابد منها .. قبل ان ندخل فى الحديث الخاص بالاستراتيجية الصهيونية ونؤكد مرة اخرى انها دائرة ضمن دائرة اكبر هي الاستراتيجية الامبريالية فى الوطن العربي وكلنا لا ننكر ان هاتين الدائرتين متداخلتان الى درجة ثار الجدل يوما أيهما تسيطر على الاخرى؟ هل امريكا تقود اسرائيل او اللوبى الصهيونى هو الذى يسير امريكا .. ولا نريد ان نخوض فى هذه الامور النظرية وحصر انفسنا فى الموضوع وسنحاول استخلاص الخطوط الرئيسية للاستراتيجية الصهيونية فى الوطن العربي ، ونبدأ باستخلاص الاهداف الصهيونية ، وعندما نقول استخلاص الاهداف لان الصهيونية لا تكشف نواياها المضمرة وتفشى مقاصدها الحقيقيـة .

الاهداف الصهيونية :

هذه الاهـداف هى :

١ ــ التوسع الاقليمي على حساب الاراضي العربية .

٢ ــ اغتصاب فلسطين العربية وسحق هويتها الحضارية .

٣ ــ الهيمنة على المنطقة وفرض السلام بالمفهوم الاسرائيلى .

اما الوسائل المعتمدة والطرق المتبعة لتحقيق هذه الاهداف فيمكن اجمالها فيما يلى : ــ

اولا : الجيش والقوات المسلحة :

يعتبر الجيش عصب الحياة فى الكيـان الصهيونى وذلك بسبب الطبيعة العدوانية لهذا الكيان وبما ان هذا الكيان قام على العدوان المسلح واغتصاب اراضى الغير فان الذى يؤمنه على استمرار السرقة دون خوف ان تكون له ذراع طويلة قادرة ليس فقط على تأمين بقائه ولكن على قضم الارض العربية بالتدريج . لذلك كان تحقيق الامن بالمفهوم الاسرائيلى يفرض تفوق الجيش الاسرائيلى على القوات العسكرية العربية لان الكيان الصهيونى لا يتحمل هزيمة واحدة كما هى قناعة قادته وزعمائه ولو كان التفوق العسكرى الصهيونى عاملا حاسمـا فى الاستيـلاء على الاراضى وتشريد السكان الآمنين عام ١٩٤٨ حيث كان العدو يحشد للقرية الصغيرة اكثر من عشرات المرات من احتياجات احتلالها .. بقصد سحق المقاومة والابادة . وعندما استسلم العرب لاتفاقات الهدنة وكانت هناك مناطق مجرد من السلاح .. اعتمد العرب على هذه الاتفاقيات لحمايتهم بينما عاود العدو الصهيونى الى استخدام التفوق فاخذ يستولى على الاراضى المجردة من السلاح واحدة بعد الاخرى ثم فتح خليج العقبة امام الملاحة الاسرائيلية بعد عدوان ١٩٥٦ على السويس .

ومفهوم الحدود الآمنة الذي يسعى العدو الصهيوني لفرضه على العرب هو الحصول على مواقع صالحة للدفاع والهجـوم وابقاء المناطق المقابلة لهذه المواقع مجردة من السلاح كما حدث فى تجريد سيناء من السلاح وبناء مطارين فى جنوب النقب على حدود مصر وهكذا يستثمر العدو الصهيونـي تفوقه العسكـري لتجميد القوات العربية مـرة بالاتفاقيات واخرى بالهدنة باستخدام القوة وذلك للحصول على مزايا فى حروبه القادمة وهكذا سائر التوسع الاقليمى الصهيونى ... فهـو يحافظ على الاراضي التي اغتصبها ثم يحتل ارضا جديدة ويعمل على اطالة احتلاله لهذه الاراضي حتى يخلق امرا وثم بعد ذلك لطرح تسوية مجحفة يعرف سلفـا انها مرفوضة ويتظاهـر امام العالم بأن العرب يرفضون كل شيء .

هذا العدو لا يترك شيئا للمعاونة ... مصر تلتزم بكامب ديفيد وتخرج من المواجهة مع العـدو الصهيوني ولكنـه ينطلق الى الجهـة الشمالية ويغزو لبنان ... العدو يتفوق فى الطيران ولا يطيق ان يكون للعرب دفاع جوي فيدمر الصواريخ الدفاعية اولا بأول .. العدو يمتلك السلاح النووي ويلجأ للحرب السرية والعلنية لتدمير المفاعل النووى

العراقي .. العدو ينقل مجاله الحيوي من مضائق تيران الى مضيق باب المندب .. كل هذا فى غياب استراتيجية عسكرية عربية .

والاسلوب الثاني فى تحقيق الاهداف الصهيونية

ثانيا : الاســتيطان :

يأتي الاستيطان الصهيوني كعملية تالية ومكملة للاحتلال العسكري وضرورية لخلق واقع جديد على الاراضي يألفه الراي العام العالمي من خلال دعايات العدو وطول أمد الاحتلال وهو يستعمل وسيلة قسرية لحمل اليهود على الحضور الى فلسطين وهــذا الاستيطان يتم أفقيا ورأسيا وذلك بانتظار التمدد الاقليمي المستمر .

ثالثا : التنمية الاقتصادية والتطور العلمي والتكنولوجي :

بالرغم من اعتماد شبه الكلي فى المرحلة الراهنة على المساعدات الاقتصادية والعسكرية التي توفرها له الولايات المتحدة الامريكية فانه يعمل باستمرار على تنمية موارده الاقتصادية وكذلك فى مجال التوسع فى الصناعات العسكرية كالاسلحة والاجهــزة المتطورة وذلك ليخفف اعتماده الكلي على المساعدات الخارجية وذلك ليوفر لنفسه قدرا من المرونة فى حركته السياسية .

رابعا : التحالفات والعلاقات الدوليــة :

لقد ولدت الصهيونية كفكرة وحركــة سياسية خارج المنطقــة العربية فلم تطرح نفسها كحل لمشكلة اقليمية سكانية تعيش فى المنطقة ولم تفشل الحركة الصهيونية فقط فى خلق دولة مميزة كما كانت تزعم انها ستفعل وانما فشلت كذلك فى خلق دولة عادية يقبل بها الوسط الذي تتواجد فيه وتقبل هي به وان انكيان الصهيوني العنصري لطبيعته ووظيفته سيبقى جسما غريبا فى المنطقة . ولذلك لا تجد سوى الخارج كي تستعديه على من حولها باعتبار ان هذا هو الذى يضمن لها البقــاء ولذلك كان شغلها الشاغل توسيع دائرة العــداء للعــرب فى العــالم والبحث عن اعداء جدد وهي لا تتعب فى ذلك وتعتبر ان مبرر بقائها هو الاستمرار فى الوظيفة التي خلقــت من اجلها وهي خدمــة مصالح الاستعمار الاوروبي ثم تحولت الى امريكا فأصبحت الآلة العسكرية التي ازاحت اوروبا عن مسرح الشرق الاوسط كي تنفرد به امريكا ولم تجد امريكا خيرا من اسرائيل كمخفر متقدم لها لتنفيذ مخططاتها وفرض هيمنتها على المنطقة وللوقوف فى وجه الاتحاد السوفيتي واصبحت

العلاقة بين مأريكا واسرائيل تخدم كل منهما الاخـرى وكلما ازدادت اسرائيل قوة كلما اصبحت في نظر امريكا اقدر على اداء دورها وهذا ما يدفع الولايات المتحدة الى الاستمرار فى تزويدها بالسلاح المتطور .

خامسا : تمزيق العرب ومنع وحدتهم :

بداية : ان اقامة الكيان الصهيوني فى فلسطين يشكل عائقا ماديا يمنع ترابط الجناح الاسيوي من الوطن العربي بالجناح الافريقي . وان تقسيم الوطن ذاته قد تم بارادة الاستعمار والهدف المنشود مـن وراء ذلك كله هو اضعاف العرب لتسهيل الهيمنة عليهم والسيطرة على مقدراتهم ويأتي الجهد الصهيوني بعد ذلك ليمارس دوره فى هذه العملية بأشكال متعددة ، فلقد سبـق لبن غوريون ان هدد باحتلال الضفة الغربية فى الخمسينات فيما لو دخل الاردن طرفا فى اي مشروع للوحدة ... ولا يزال العدو يهدد باحتلال الاردن فى حال نقل قـوات عربية اليه . كما ان دعايات العدو ونشاطـه السري موجهان لخلخلة الجبهات العربية الداخلية كاثارة الاقليات فى الوطن العربي ، ثم محاولة الوصول الى وضع يفرض نفسه حاميا لهذه الاقليـات فهو من خلال الادعاء بحرصه على سيادة لبنان مثلا وجد ان لبنان غير جدير بالسيادة ومن خلال حرصه المزعوم على سيادة الاردن يهدد باحتلاله لحل مشكلة الفلسطينيين فى وطن بديل .. المهم هدف العدو غير المعلن من وراء كل هذا توفير شروط مادية تسهل عليه تحقيق سلسلة جديدة مـن المطامع المستقبلية .

سادسا : المراوغة الدبلوماسية :

قال حاييم وايزمن اول رئيس للكيان الصهيوني فى سنة ١٩١٩ اي بعد عامين من صدور وعد بلفور « ان الدولة اليهودية سوف تأتي ... ولكنها لن تأتي بواسطة الوعود والتصريحات السياسية بل بعرق الشعب اليهودي ودمه تلك هي الطريقة الوحيدة لبناء الدول » .

اذن الحركة الصهيونية لم تكن تعدل على الوعود والتصريحـات وانما كانت تتخذ منها ساترا فى نشاطها الدبلوماسي لتغطية ممارساتها على صعيد الواقع واعطائها صورة من الشرعية . صحيح جاهـدت الصهيونية للحصول على الوعود والتصريحات ابتداء من وعد بلفور سنة ١٩١٧ الى صك الانتداب على فلسطين سنة ١٩٢٠ وحتى قرار التقسيم سنة ١٩٤٧ ولكن الممارسة الاستعمارية على الارض كانت تسبق هذه

التصريحات والوعـــود أي ان الموضـــوع كـان اختـلاق شرعيـــة دولية تغطي الامر الواقع الذي كان يجري ترتيبه فالاستيطان الصهيوني كان يسبق ذلك كله . وهذا ما قاله بن غوريون « الهجرة والاستيطان كفيلان بأن يخلقا الواقع السياسي الذي لا مفر منه » .

ولننظر الآن فى الصورة المقلوبة اي فى موقف الكيان الصهيوني من كل القرارات الدولية بعد ان وصل الى اقامـة كيانه فقد ضرب عرض الحائط بالقرارات الدولية التي سعى الى استصدارها لانهـا تتناقض مع خططه العدوانية .

ولاعطاء شكل على ذلك علينا مشاهدة ما يطالب به فى المفاوضات مع الحكومة اللبنانية ... من محطات للانذار وتواجد في الجنوب وهو ما سبق ان فعله فى سيناء التي جردها من السلاح وما يهدد به مـن احتلال للاردن ، ان ما يريد ان يصل اليه لخصه موشيه ارينز « ان السلام فى الشرق الاوسط يتحقق عندما تتأكد الدول العربية بأنه ليس فى مقدورها ان تهزم اسرائيل وان اول شروط السلام هي عندما يشعر العرب بأنه لا يوجد لديهم خيار عسكري » .

سابعا : الدعاية والحرب النفسية :

كان للدعاية دور هام فى مسيرة الحركـة الصهيونية العدوانية نحو تحقيق اهدافها فى الاغتصـاب والتوسع ففي البدايـة قدمت مشروعها لليهود على انه الملجأ الآمن الذي سيحقق لهم الكرامة وينقذهم من الاضطهاد متجاهلة وجود شعب عربي فى فلسطين وما يترتب على ذلك من مقاومة وذلك لتشجيعهم على الهجرة والاستيطان . وبالنسبة للرأي العام الاوربى قدمت مشروعها على انه لضمان استمرار المصـالح الاستعمارية فى المنطقة وفى مرحلـة لاحقـة ركزت على تخلـف العرب وعلى تقدم اليهود وانهم رسل الحضارة الغربية للمنطقة لتخلق قناعة بأنها اجدر بحيازة فلسطين . وبعد قيام الكيان الصهيوني وعندما ركز العرب مطالبين على عودة اللاجئين الى ديارهم عمـد العدو وفى مقابل ذلك الى المطالبة بالاعتراف به وهو يعلم سلفا ان ذلك غير قابل للتحقيق ... وبذلك يشتري الوقت حتى يتم استيطان المناطق المحتلة وتهويدها وبعد حرب سنة ١٩٦٧ كان يوهم العالم بأنه سينسحب من الاراضي المحتلة اذا قبـل العرب بالمفاوضـات المباشرة وهـو يعلم ان العـرب سيرفضون . وعندما سقط السادات فى الامتحان ودخل المفاوضات ،

راينا ماذا حصل له وماذا حصل لمصر ... وما جرته علينا اتفاقيات كامب ديفيد . لقد ثبت ان التسوية الاسرائيلية المصرية كانت استسلاما لمطالب العدو .

وباختصار : المبدأ الذي تقوم عليه الاستراتيجية الصهيونية هو الهجوم للاحتلال ، الهجوم للتوسع ، الهجوم لاجهاض القوة العربية .. الهجوم للسيطرة والهيمنة وامتلاك المستقبل العربى .

والسؤال الذى يقودنا الى الجزء الثانى من المحاضرة ماذا فعل العرب لمواجهة هذه الاستراتيجية الصهيونية المتحالفة مع الامبريالية العالمية .. هل كانت هناك استراتيجية عربية للمواجهة .. من المؤسف ان نقرر منذ البداية وعند النهاية انه لم تكن هناك استراتيجية مواجهة عربية .

علينا ان نفرق بين الامة العربية ... والانظمة العربية ... فالامة العربية منذ سنة ١٩٢٠ وهي تعي المخططات الامبريالية والصهيونية وتحذر منها وتتظاهر ضدها وتطالب بالمواجهة والجهاد .. وتاريخ الثورة العربية وجهاد شعب فلسطين شاهدان على ذلك . ولكن الانظمة العربية تعاملت مع الغزو الصهيوني على اساس سياسة السكوت عن ضياع الجزء في سبيل سلامة باقي المنطقة العربية ... الى ان وصلت الامور الان بأن الذي ضاع ليس الجزء فلسطين .. ولكن تحت الهيمنة الاسرائيلية المباشرة وغير المباشرة ولتفصيل ذلك اقول ... فى عام ١٩٤٩ وقعت الدول العربية المواجهة لفلسطين ـ مصر والاردن وسوريا ولبنان ـ اتفاقيات الهدنة مع اسرائيل وتعاملت مع الكيان الاسرائيلي كطرف اخر على قدم المساواة وتم الالتزام فى هذه الاتفاقيات بعدم قيام القوات العسكرية وشبه العسكرية بأي عمل عدائي او حربي ضد الطرف الاخر ... كما حرمت هذه الاتفاقيات اجتياز المدنيين لخطوط القتال او دخول المناطق الواقعة بين الخطوط وواضح هنا من هم المقصودون بالقوات شبه العسكرية والمدنيين .

اما الاتجاه العام للعلاقات العربية الاسرائيلية فقد جرى تأكيده فى اتفاقيات رودس بالنص الآتي : ان اقامة هدنة بين القوات المسلحة للفريقين يقبل باعتباره خطوة لا غنى عنها نحو فض النزاع المسلح واعادة السلم الى فلسطين .

وقد تم الالتزام باتفاقيات رودس نصا وروحا من جانب الدول العربية بينما استمر العدو يضرب بها عرض الحائط ويواصل عربدته العسكرية مخترقا خطوط الهدنة للارهاب وسفك الدماء ... الى ان حدث تطور اخر على الجبهة المصرية كنتيجة لحرب السويس فى ١٩٥٦ حيث جاءت القوات الدولية وفتح خليج العقبة امام الملاحة الاسرائيلية.

واستمرت اسرائيل تعتدى والعرب يهادنون ... وتهاجم كل دولة عربية على حدة ويقف الباقي يتفرجون ... ربما المحاولة الوحيدة لمواجهة مشتركة هي التي قامت بها مصر وسوريا فى اكتوبر سنة ١٩٧٣ وسرعان ما اجهضت نتائجها امريكا بالجسر الجوي من السلاح وبالقمر الصناعي الذي ارشد شارون كي يقوم بثغرة الدفرسوار . **وبعد ذلك طرح السادات ان هناك مجالا لتسوية عربية اسرائيلية عن** طريق مؤتمر جنيف وحاول خديعة منظمة التحرير الفلسطينية بأن هناك دولة لهم ولكن اثبتت الاحداث ان كل ما قاله السادات اما انها عبقرية منه للخداع واما ان الاسرائيليين استطاعوا ان يأخذوا منه كل شيء ولا يعطوه شيئا وكلا الامرين شر حل بالامة العربية وبقضية فلسطين وهكذا انزلق العرب الى اسقاط الخيار العسكري ولقول بأنه تسوية للقضية ومنذ قيام الدولة الصهيونية والعرب فى حالة عدم توازن . اصبحوا فى وضع لم نفقد فيه القدرة على توجيه الاحداث بل **فقدنا القدرة ايضا على الصمود فى وجه الاحداث ... أما لماذا وصلنا** الى فقدان استراتيجية المواجهة فذلك يرجع للاسباب التالية : ـ

أولا : قالت فتح فى مذكرة هامة رفعتها الى مؤتمر القمة الذي عقد فى الجزائر سنة ١٩٦٤ ان الحرب النظامية لا تصبح للصمود واسترجاع فلسطين .. لان قيادة واحدة وجيشا واحدا وسلاحا متطورا غير مدفوع الثمن سيبقى متفوقا على عدة قيادات وعدة جيوش واسلحة أقل تطورا من السلاح الاسرائيلي ... ولذلك لا بد من اعتماد حرب التحرير الشعبية الطويلة الامد اسلوبا لقهر العدو الصهيوني والامبريالية المتحالفة معه ... وان العرب يجب ان يرفعوا قضية فلسطين فوق مستوى الخلافات العربية وعليهم ان يبنوا اقتصادهم اقتصاد حرب وقام الفلسطينيون بانطلاقهم فى ١٩٦٥/١/١ بعد ان سمعوا اكثر من تأكيد بأن الدول المحيطة باسرائيل قادرة على حماية حدودها على الاقل ولكن الذي حدث ان الانظمة العربية اصدرت قرارا من القيادة العربية الموحدة آنذاك بقيادة علي علي عامر بمحاربة رجال العاصفة واعتقالهم وقد تم ذلك لصالح الكيان الصهيوني وتطبيقا

لاتفاقيات الهدنة التي تمنع العمل شبه العسكري .. وهكذا ثبت لنا ان الانظمة العربية كانت شرطي حدود ورغم ذلك فقد استمر موقفنا في كل المناسبات ينادى بأن حرب التحرير الشعبية طويلة الان .

ثانيا : سيطر على الانظمة العربية ان تكرس قواها وجيوشها لحماية النظام فى كل بلد عربي وبالتالي كانت قضية فلسطين والاراضي المحتلة للمزايدات الكلامية فقط .

ثالثا : وقعت الدول العربية فى مصيدة : الخلافات الثنائية والثلاثية وفشلت كل محاولات الوحدة فيما بينها وهذا طبعا جعل العدو الصهيوني يعتمد فى بقائه على الضعف العربي والتمزق العربي والخلافات العربية .

رابعا : فقدان الحرية وحجبها عن الجماهير العربية خلق هوة كبيرة وجعل الثقة مفقودة بين الجماهير وحكوماتها ودفع هذه الحكومات الى الارتباط ببعض الدول الكبرى التى يهمها ان تمسك باسرائيل كحليف استراتيجي وبأية دولة عربية أخرى باليد الاخرى . . والسقوط فى مثل هذه الامور عطل ارادة وفاعلية معظم الدول العربية وحولها الى أدوات في أيدى الدول الكبرى .

خامسا : استمرار العداوة بين ثلاث من القوى الاسلامية فى المنطقة وهى العرب والاتراك والفرس وهو ما وضعه الاستعمار الاوربي ولذلك فان القوى الاسلامية التي كان من المفترض ان تساند الامة العربية المسلمة في محنة اغتصاب فلسطين اتجهت حكوماتها في ذلك الحين للتعاون مع الكيان الصهيوني ولم تبذل الجهود لازالة هذا الخلاف المصطنع بين العرب والقوى الاسلامية .

سادسا : الحرب النفسية ضد الشعب الفلسطيني وبدلا من التركيز على أهمية العامل الفلسطيني فى الصراع العربي الصهيوني باعتباره صراع وجود لا صراع حدود جرى تجاهل الشعب الفلسطيني بداية محاولة اجهاض ثورته ثانيا والسكوت عن محاولات تصفيته في لبنان أخيرا ...

لهذه الاسباب مجتمعة ومتداخلة نشأت حالة فقدان . وأصبح العدو الصهيوني قادرا على تنفيذ ما يريد على الساحة العربية .

والشعب الفلسطيني قاوم كل محاولات ضربه وتصفيته واخضاعه للاستسلام على الوجه الذى ارادته الانظمة العربية .

كان طموحنا ان يدرك الحكام حقيقة الخطر الصهيونى وطبيعة السلام الذي يريدونه – كان طموحنا ان يترك الحكام شعوبهم تتفاعل مع الثورة الفلسطينية .

– كان طموحنا ان تكون كل الاراضى العربية المحيطة بفلسطين مفتوحة امام العمل الفدائي .

– ان يؤمن العرب بأن الحرب النظامية ليست بديلا عن العمل الفدائي .

– ان تتألف كتائب عربية فدائية تدعم قوات الثورة .

ولكن الذي حصل عكس هذا

– محاولة للقضاء علينا فى ايلول سنة ١٩٧٠ على أثر مبادرة روجرز .

– محاولة ضرب الثورة الفلسطينية فى لبنان اكثر من مرة .

– محاصرة الثورة فى سراب التسوية بعد حرب رمضان .

– واخيرا السكوت عن غزو لبنان ومحاصرة الثورة فى بيروت .

– قال اسحق رابين فى سنة ١٩٧٤ اعطوني سبع سنوات حتى يزول أثر النفط العربى ونحن نسمع اليوم ... قصة النفط العربى وكيف أصبح بسوء تخطيطنا أزمة وعبئا وسلاحا يشهر ضدنا من الامبريالية .

– وبالرغم من ذلك نحن جزء من هذه الامة العربية نتحمل ايجابياتها وسلبياتها ونرجو ان يدرك العرب أن العدو الصهيونى لايقصد فلسطين فقط انه يقصد استعمار المنطقة يريد ان نكون اجزاء في المصنع الاسرائيلي ولذلك يطالب بالتفاوض مع كل دولة وعندما يتفاوض يصر على الحدود المفتوحة والتبادل الثقافى والتجاري والتطبيع وأشياء اخرى يطالب بالسلام من جانب واحد يتلاعب بكل الالفاظ يقول بأن الحدود نوعان حدود قانونية وحدود دفاعية ... ها هو خلق مشكلة لبنان ويطول في المفاوضات .. حتى ينفذ ما يريد

فى الضفة والقطاع .. ولم يخجل وزير دفاعه الجديد من التصريح بأن القطاع والضفة لا يحتاجان لقرار ضم لانهما ضمتا فعلا ولانهما أراض يهودية .

ولكن علينا أن ندرك :

ان هذا الكيان الصهيونى ليس قلعة لا تقهر .. ان عوامل اخلاله موجودة فيه .. رغم البلايين الخمسة التى يحصل عليها من أمريكا . فاقتصاده الى الوراء والتضخم لا مثيل له وارتفاع الاسعار وتدنى قيمة العملة الاسرائيلية ووجود عدم الانسجام بين فئاته التى أتت من أقطار عربية وغيرها من الاقطار .. بكل ذلك يجعلنا نؤمن بأن الانتصار عليه ليس مستحيلا ولا صعبا .. انما يتطلب الأمر خطة واستراتيجية تصحيحية على أساس حرب التحرير الشعبية الطويلة الأمد ...

ان محاولة القضاء علينا فى لبنان وفشل هذه المحاولة وارتفاع سمعتنا الدولية وهبوط سمعة العدو .. تعطينا الامل ان الطريق ما زال مفتوحا أمام الوصول الى أهدافنا . اننا لا نحمل البندقية فقد توجهنا للعالم وشرحنا قضيتنا بالطريقة الصحيحة التي يفهمونها وقدمنا حلولا نهائية ومرحلية .

لقد قلنا للعالم ان ٦٥٪ من اليهود اخرجوا من البلدان العربية وكانوا يعيشون بسلام كأقليات ... والعالم كله مليء بالاقليات وطرحنا حلا وهو الدولة الديمقراطية على أرض فلسطين حيث يعيش اليهود والمسيحيون والمسلمون كمواطنين متساوين أمام القانون فى مجتمع ديمقراطي خال من الصهيونية والعنصرية .

وطرحنا حلا مرحليا في سنة ١٩٧٤ باقامة دولة فلسطينية مستقلة فوق أى جزء يتحرر من فلسطين .

واقتنعت معظم دول العالم بعدالة قضايانا ... وصدرت القرارات عن الامم المتحدة وخاصة القرار ٣٢٣٦ .

وبعد بيروت حضرنا قمة فاس وساهمنا فى صدور مشروع السلام العربي في فاس وطرقت اللجنة السباعية أبواب الدول الكبرى لتصطدم بأمريكا وانجلترا ... ولما كان قرار قمة فاس لم يتحدث عن البديل ..

فكان الو اجب ان تضع الدول العربية خيار الحرب وهو ما لم تفعله .. فاننا فى المجلس الفلسطينى قررنا ان قرار قمة فاس يجب ان يتكامل بالكفاح المسلح ولا نقول ذلك مزايدة فالحقيقة الثابتة ان الكفاح المسلح الذي نتبناه فى ميثاقنا الوطني استراتيجية وليس تكتيكا هو الذي يوصلنا الى حقوقنا المرحلية أو النهائية وثقتنا كبيرة فى أهلنا فى أرضنا المحتلة وفى استمرار كفاحهم البطولى بكافة أشكاله . وثقتنا كبيرة بشعبنا العربى من المحيط الى الخليج الذى نأمل ان يتجاوز كل العقبات الموضوعة فى طريقه من أجل استعادة كرامته واثبات وجوده حتى لا تستمر المهزلة والنكتة التي يتندر به الاعداء .. أربعة ملايين يقودون ويهزمون مائة وخمسين مليونا من العرب ومئات الملايين حولهم .

ثقافتنا وهذا الصراع المصيري

الدكتور شاكر مصطفى

ثقافتنا وهذا الصراع المصيرى

عنوان محاضرتنا هو « الاستعمار الثقافي والصراع العربى الاسرائيلي ولكن استاذنا الفاضل الدكتور شاكر مصطفى قد اقترح عنوانا آخر هو « ثقافتنا وهذا الصراع المصيري » ان الاستعمار الثقافي نوع من انواع السيطرة على عقل الانسان بغية تمهيد السبيل الى انواع السيطرة الاخرى وهو بلا شك اخطر انواع الاستعمار ـ ذلك ان الاستعمار العسكري او الاقتصادي او ... السياسى من الوضوح بحيث يمكن مقاومته أما الاستعمار الثقافى فمن الصعب محاربته وانتزاعه من عقل الانسان وسلوكه وله تأثير على تفكير الناس ودفعهم باتجاه خدمة الامبريالية حيث تمارس عملية ترويض بعقولهم لقبول سياستها وتبريرها وذلك تحقيقا لمصالحها الاقتصادية واهدافها الاستراتيجية .

ان الصراع بين الثقافة العربية والاستعمار الثقافى الغربي طويل ومرير اذ ان انتصار الاستعمار الثقافى معناه أن يعم التخلف وتسود الامية الثقافية ويلعب الاستعمار الثقافي دورا هاما في تخلف امتنا العربية بطرق مباشرة او غير مباشرة هذا النوع من الاستعمار ودوره فى الصراع العربي الاسرائيلي المصيري هو موضوع هذه المحاضرة للاستاذ الدكتور شاكر مصطفى ـ استاذ الحضارة العربية الاسلامية بجامعة الكويت ورئيس لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية بجامعة الدول العربية .

المحاضرة

((تمهيد))

سد مأرب كلكم سمعتم به ، وقصة انهيار السد كلكم تعرفونها وتروونها لقد انتهت فى الرواية القرآنية الكريمة بالمأساة « فأعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتهم جنتين ذواتى اكل خمط واثل وشىء من سدر قليل .. »

ما تذكرت هذا السد الدهرى العتيق لتاريخه ، ولكـــن لبعض الحكاية التى نسجت حوله ، والتى ظل أهل اليمن يعيرون بها فى الكتب يقولون أن بعض القوم فى سبأ شهد جماعة من الفأر تعترض هذا السد فأقبل على قومه ينبه وينذر والقوم عنه فى شغل ، ثم ألحف النذر فنبذه الناس ، فماذا يمكن للفأر أن ينال من الحجر ؟ ولما صار نذيره صيـاحا طردوه وهل للفأر أن يقرض السد الدهرى ؟ وأفاقوا ذات يوم فاذا سيل العرم قد دهم الابواب ، واختطف الخبر والاطفال ، واذا هم فى السيل ، بعض ما يحمل السيل من غثاء أو حوى ، أغرقهم فأر ، كذلك سجلت اخبار الكتب ذهاب سبأ فى الغابرين وقد جئت اقول لكم ، جئت انبـه ، أنذر أصرخ ــ ان السد العتيق يؤتكل من الداخل . أن قبيل الفأر يفتح فى السد المسارب والثغرات وان السيل سيل العرم ماذا أقول ؟ تبـا للمتشائمين .

مغزى الصراع المصيرى واشكاله :

على انى مع ذلك ــ لا أملك الصمت . ولا أملك الا أنظر من الزاوية السوداء وأنا أرى ــ وأنتم ترون معى ــ الى الارض العربيـة تغتصب ولا من يذود ، والى الثروة المـادية تنهب أو تـذوب ولا من يسـأل ، والى الكفايات ولا من يحتضن . والى الانسان العربي يسحق في مـدن كاملة فليس من يأبه أو يزلزل الارض ، وآلى الحريات المقدسة تذبـح فلا ... والى التاريخ القومي يشوه فلا ــ والى الامال الجماهيرية تدمر فلا ، والى رابطة العروبة أشلاء من الطوائف والاقاليم والشكوك فلا ولا ، أغريب بعد هذا كله أن أخشى على الكيان الثقافى وهو مستودع الهويـة الحضاريـة ومعدن الذات القومية ان يهوى مع الهاويات ! أليس لي ان أضع يدى على قلبى وأنا انظر الى السد الثقافى يخترق وتضربه الصواعق وهو فى الصراع المصيرى القائم عمقنا الاستراتيجى الاخير . أم جسبتم أن الكثرة العددية تحمى ؟

ان لكم فى مصائر شعوب المايا والازتيك والانكا والفاندال ، عـلى أيدى الغرب ، هذا الغرب نفسه عبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد ، لقد اخترقت النظم السياسية فالعملاء فى كل فج . تخجل البغايا ولا يخجل العملاء ، اخترقت القوى العسكرية فهى فى خدمة كل شىء الا الدفاع القومي : اخترقت الدفاع الاقتصادى مات النفط ، قتل التحول الاشتراكى ضللت خطط التنمية حتى غذاؤنا صرنا اليـوم نستورد ٧٥٪ منـه واخترقت الثروة البشرية بالامتصاص والهجرة وبالقتـل الـداخلي

والتجنيد لمصلحة الغرب ، وبالنفاق للحكام ، اخترقت حتى المثل القومية والكبرى فليس من يذكر وحدة العرب أو حرية الناس الا على الاستحياء والهمس .

حصنان هما الباقيان

١ ـ **الحصن الاول هو الدين** ، ولانه غير قابل للانهيار فهم يشوهونه بالطائفية وبالدعوة الى الرجعي وبالتحول الى المظاهر والقشور والى التعبد بالنصوص واطراح العقل امام النقل .

٢ ـ **الحصن الثانى هو الثقافة القومية** ولانها من بنى الاعماق فهم يطرحون مقابلها الغام الاعماق كل المبادىء الهدامة تطرح مقابلها كل قوى التفريغ من الداخل تحشد .

أو تحسبون انى الى التهويل أو الى التعميم الخطابى ؟ دعونا اذا نبدأ التحليل من نقاطه الاولية ثمة فى البدء مقولات ثلاث التقطها من التاريخ ولها عندى قوة المسلمات : ـ

أ ـ المسلمة الاولى :

ان الصراع العربى الصهيونى ليس عارضا ولا قائما بذاته ولكنه جزء من صراع تاريخى وامتداد لصراع أوسع ، كان ولا يزال قائما منذ قرون بين العرب المسلمين والغرب وان قادة الولايات المتحدة خاصة وأسرائيل مرحلته الحالية واذا كان فى الامس يحمل الشعار الثقافى الدينى الكاثوليكى فقد أضيف اليه فى المرحلة القائمة الشعار الدينى الصهيونى ولكنه فى جميع الاحوال كان صراع تسلط على الارض العربية وعلى الممرات والخبرات والناس ، كان محاولة نفى للقوة العربية الاسلامية التى تقوم على أقرب الاطراف الى أوربا وآلتى تقتسم معها البحر المتوسط ـ بحر الحضارات وبين الصليبية الامريكية ـ الصهيونية الاخيرة .

ب ـ المسلمة الثانية :

ان الحضارة الغربية هجومية بطبيعتها بربرية عدوانية حتى ما وراء الفطم ، اذا كانت تتعامل مع الطبيعة بمنطق المعرفة للسيطرة والاخضاع فهى تتعامل كذلك مع البشر ، تاريخها كله انما هو مأساة دموية متصلة مع الاخرين منذ اربعة قرون على الاقل الى اليوم فقد ابادت ٤٠ مليون هندى أمريكى بالنار والزهرى والجدرى لتنهب ذهبهم والارض ، ثم

استعبدت وابادت ١٠٠ مليون أفريقى عدة قرون واستثمرت معهم الف مليون هندى وصينى وأوقيانوسى لتقيم من دماء الجميع هذه الحضارة التي لها . تستبعد الناس من جديد . هذا التاريخ الطويل من الدماء وطد لديها مقولة بدهية قائمة فى جذور مواقفها جميعا « أن القوة هى الحق ، وان الغاية تبرر الواسطة » وشهرة مكيافيلى لم تنجم عن مقولته هذه مقدار ما نجمت عن انطباقها مع جذور الفكر الغربى فالبنية الراسمالية للغرب هى التى تحكمه وتكمن فى أعمق النسائج من قيمه ومواقفه .

ج ـ المسلمة الثالثة :

انكار الاخر ، الغرب لا يعترف بالحضارات الاخرى فهو يرفضها ويحتقرها باسم اللون تارة وباسم الدين تارة أخرى وباسم التخلف تارة ثالثة ، لكنه لا يعدم فى كل الاحوال الوسيلة لتبرير ذلك الاحتقار ولتنظيره فى نظريات فكرية فالتاريخ الذى يرضعونه لاطفالهم ليس فيه سوى اليونان والرومان ثم العصور الوسطى ثم هم فى النهاية أرباب التكنولوجيا الحديثه حتى السيد المسيح عندهم أشقر أزرق العينين أما الصينى والهندى والزنجى والعربى فمادة للهزؤ والكاريكاتير ويتطابق هذا الفكر كل التطابق ويأخذ كل أبعاد الغرور مع اليهود الذين يرون أنهم غربيون من جهة ، وان الاسطورة اليهودية من جهة أخرى تجعلهم « شعب الله المختار » والشعب المتفوق علميا وابتكارا أما باقى عباد الله هم البهائم . دموية امثال شارون وبارانويا بيجن ها هنا منابعهاالاجرامية والجذور ، الشبح التوراتى فى العقل اليهودى ترسانة حقد على الانسانية لا تنفد .

فى اطار هذه المسلمات كان محتوما أن تكون طبيعة العلاقة بين الغرب الحديث ـ أن لم نذكر القديم ـ وبين جميع حضارات الدنيا وشعوبها بما فيها الحضارة العربية الاسلامية وشعوبها علاقة حرب بارود واشلاء تسيل وامتصاص دماء ولا يمكن أن تكون غير ذلك كل أفكار الانسانية والحرية والاخاء وحقوق الانسان ليست الاطار التزييني لمراحل الحرب ، ليست الا المعادل التخديرى او الوجدانى للوحش الكامن وسكينه الجليدية ، ابشع ما يكون القاتل حين يرى فى السكين اداة حضارة ويرى فى القتل رسالة انسانيه ، هل اذكركم بالمنطق الذى يتحدث به الثنائى الحضارى ريجان وبيجن عن أمن اسرائيل .

مراحل الصراع المصيرى :

شيء من التاريخ ، دعونا نرجع قليلا الى الوراء الى مطالع القرن الماضى نتفحص رماد التاريخ وجراحه فى خاطرى من كتابات القرون الماضى فقرة تقول : عند سقوط الدولة العثمانية تقتسم الدول الاوربية فى مؤتمر خاص الاجزاء التى يحددها لها المؤتمر وتلحقها بها تحت حمايتها ان هذا اللون من السيادة هو حق أوربى يسمح لنا باحتلال أراض وشواطىء من كل بلد كى تقام عليها مدن حرة او مستعمرات اوربية او مراكز تجارية وهكذا تمارس كل سلطة حمايتها على كل بلد بجيش له مهمة تمدينية . لم يكتب هذه الكلمات قائد حربى او سياسى كبير او صاحب مجموعة من الشركات الاحتكارية ، صاحبها شاعر من ارق واشهر شعراء العصر الرومانطيقى هل فيكم من لم يسمع بلامارتين ؟ ما بالك اذن باصحاب الانياب المسنونة ؟

هذا النوع من العلاقة الغربية مع باقى العالم كانوا يسمونها بالاستعمار ويجعلونها رسالة الرجل الابيض ، لو كشطنا الاصباغ عن هذه العلاقة والجلد المحترق فهل تراها شيئا اخر سوى علاقة الحرب والحرب على جميع الجبهات .

ونحن فى العادة نذكر الوجه الشيطانى لهذا الاستعمار على المستويين العسكرى والسياسى بل نضيف أيضا التدمير الاقتصادى لكننا ننسى العملية الاعمق والاخطر ، ننسى دبيب الحرب الى الحرام الثقافى ، تختلط علينا الرؤية بين عملية اقتباس العلم الغربى وبين عمليات التدمير الثقافى الدؤوب التى تواكبها ، لا نرى الدكتور جيكل خلف المستر هايد لم تبتعد بعد لدرجة النسيان ، ولم تمت بعد عمليات التبشير الدينى ولا عمليات التغيير اللغوى وخاصة فى المغرب ولا عمليات تشويه التعليم وتغريبه بجميع مستوياته ، ولا التسابق فى نهب الاثار لتزيين الميادين ولا اغتصاب التراث لملء مكتبات المتحف البريطانى او المكتبة الوطنية فى باريس ، ولا استغلال نظارات العلم ولحاه الاستشاق فى دهاليز الانتلجانس سرفيس والمكتب الثانى .

ومع ذلك لم تنته تلك المرحلة المأسوية بكل عطشها الجهنمى الا لتبدأ بعدها المرحلة الاقسى ، مرحلة القهر الاخرى التى نعيش بعد الحرب العالمية الثانية بدأت هذه المرحلة التى اختلفت اهدافها ووسائل وكثافة وسرعة وعنفا عن كل مرحلة سبقتها فى التاريخ ، انها جعلت العرب الامة

المأسوية الوحيدةفى القرن العشرين وليس من أمة اخرى منذ الخمسينات الى اليوم تتكالب عليها قوى الدمار ومن كل فج عميق تكالبها على هذه الامة ما من جماعة بشرية مصيرها اليوم كله فى الميزان الا العرب ، وقد حدثت تحولات فى هذه المرحلة اهمها ما يلى :

١ ــ نمت وفى سلسلة هندسية رهيبة كمية المعرفة فى الغرب كما نمت قوته التكنولوجية فى السلسلة ذاتها ونمت اطماعه الكبرى فىالهيمنة حتى على الافلاك بعد ان ماتت المسافات فى حلقة جهنمية من الجبروت المتسلسل يستخدم معرفته وتكنولوجيته لزيادة قوته ويعود ويستخدم **هذه القوة لزيادة معرفته والتكنولوجيا والركض متصل ورهيب والمشروع** الرأسمالى الغربى الذى يفرز بتكونياته الاجتماعية والاقتصادية هذا كله يتضخم حالا على حال وانياب الهيمنة والتبعية الارغامية تتضخم معه وتزيد فى القوة والاحكام حول الاعناق .

٢ ــ ظهرت ملامح المارد العربى الذى يحمل ايديولوجيتى الاسلام **والذى تكشف خطه الفكرى منذ الخمسينات فى ثالوث الوحدة والحرية** والاشتراكية او العدالة الاجتماعية والذى ينام فوق بحر من اعصاب .. الالة الحديثة فى البترول والغاز والثروة الكامنة وتزداد خبراته وامكاناته البشرية سنويا بعشرات الالوف كما تزداد اعداده البشرية بالملايين ، وقد اعطى على الدوام فى تاريخ الانسانية مما وقف على الدوام للغرب ندا بديلا ووقعت الحرب الخرساء غير المتكافئة لان اصطـدام العدوانية الغربية المتفوقة بهذا المارد الممكن امر محتوم ، الغرب الرأسمالى ظل يهدد حتى الشرق ، شرقه الى ان دخل هذا الشرق الغربى النادى النووى وظـل يرفض الاعتراف بالصين حتى فرضت نفسها عليه فرضا ، والغرب لا يحارب الاسلام لذاته فقط ولا الاشتراكية لنظامها ولا الوحدة القومية لانها وحدة تضيع الرؤية لو نظرنا لهذه الحرب على المستوى الايديولوجى **وحده انه يحارب أي ايديولوجية من هذه وتلك واي عقيدة ويحاربهـا مجتمعة ايضا ويضرب بعضها ببعض كلما وجد انها فى حالة مد فى حالة** قوة تتحرك فى تصاعد يهدد مصالحه لا تناقض بين ما ينفذه من مشاعر فى افغانستان وضد الاسلام فى نيجيريا ولا تناقض بين ما ينفذه من مشاعر مصرية اقليمية فى مصر من طائفية قبطية فى الوقت نفسه ضد مصر ، انها تنبع جميعا من منطلق واحد انه يرفض قيام المركز الحضاري الرابع على الارض ، ما يسمونه بالعالم الثالث ، ليس بعالم واحد ولكنه عدة عوالم **حبلى بالمواعيد والامكان ويجب الآ يظهر فيها المركز الحضارى الرابع .**

ان التفوق والهيمنة والرفاه فى الغرب مشروطة كلها ببقاء العالم الثالث عالما ثالثا امريكى سوفيتى للحيلولة دون وجود قنبلة رابعة فى العالم وخاصة العربى والاسلامى لان الاسلام هو نقطة الزلزال ويجب ان يبقى المترجم الى التكنولوجيا الحديثة .

٣ ـ دور الجماعة الصهيونية : فى هذه الحرب الشاملة الخرساء منذ مطلع المرحلة وجد الغرب والشرق معه ، حليفه الطبيعى فى الجماعة الصهيونية التى كانت قد حشدتها وسلحتها انجلترا لمصالحها فى فلسطين **ادرك ما يمكن ان تقوم به هذه الجماعة العمياء بالاسطورة التوراتية من** دور مدمر للطاقة العربية فاعترف بها دولة ثم اغدق عليها المال فكل صهيونى منها مكلف المتكلف الامريكى والالمانى وباقى الغرب ٢٥٫٠٠٠ دولار على الاقل والبقية تأتى ، سلحوه حتى الاسنان ، لم يكن مضى على الدولة **أربع سنوات حين فتحوا لها باب اللعبةالنووية رغمانها كانت اخر قدراتهم** القتالية واشترك فى تقديم هذه الخدمة الامنية المطلقة فرن جى موليه وديجول منذ سنة ١٩٥٥ ثم الولايات المتحدة منذ سنة ١٩٦٠ ثم انجلترا **والمانيا معا وباقى الجوقة تعاونوا معا فى الحرب سنة ١٩٥٦ ثمطلبواالهـا سنة ١٩٦٧ ثم انقذوها سنة ١٩٧٣ لانها كانت تحارب عنهم وبهمولهم أسلوب استئجار جماعة من القتلة وتربيتهم ودعمهم على افتراس الارض** والبشر عن اجرام دينى دهرى لم يستخدم فى العالم كله الا ضد العرب هل من الغريب والجماعة الصهيونية امتداد عدوانى غربى ـ ان يسود المنطق المعكوس فى الغرب بشأنها ؟ وماذا ... اذكر من هذا المنطقالمعكوس وهو مئات المغالطات والمواقف ؟

* تدمر صور وصيدا وبيروت ويطلب الامن لروحوبوت ونهاريا وتل ابيب .

* يذبح الفلسطينى المصلوب وبالالاف ومع ذلك فهو الارهابى ، اما القاتل السفاح فدولة ديمقراطية .

* لاى يهودى حق الحياة وفى ارض فلسطين وليس للفلسطينى صاحب حتى حق الحياة فى اى مكان .

* **تشترط دول الدنيا علينا حق اسرائيل فى البقاء ولا تمنح العربى** الفلسطينى حتى حق تقرير المصير .

* يسلم للصهيونى بمرور الزمن على اى اقرار او وضع مضت عليه سنوات بحجمه ظهور دافع جديد ، وينكر على العربى مرور خمسة وعشرين قرنا على الواقع اليهودى القديم .

* تبلغ ديون اسرائيل ٣٠ مليار دولار اليوم وهى ٣ ملايين مهاجر فقط فلا تعتبر مفلسة او تثار لها قضية افلاس وتصل ديون المكسيك الى ٨٠ مليار او دونها وهى ٨٠ مليون انسان فينادى العالم عليها بالثبور وعظائم الامـور .

ان عمليات التضخيم المصطنعة ، وحقن التقوية المستمرة والانحياز الغربى المتزايد للغزو الصهيونى لم تنته الى خلق واقع جديد مزروع فى المنطقة العربية فحسب ولكنه ادى فى الاونة الاخيرة ومـع التراكم الى ظهور مستجدات خطيرة تريد ان تلعب بالمصير العربى كله اننـا الان فى مواجهة قوة امبريالية جديدة متواطنة فى الارض العربية وتريد التصرف على انها الدولة الاكثر نفوذا على انها ضابط الايقاع انها الفلك الذى تدور حوله بالعصا باقى الافلاك وتريد من خلال ما يسمى بالسلام والتطبيع ان تتصرف حتى فى الكتب المدرسية وفى همسات الناس بل فيما يقرأون من القرآن ؟ ان الوجود الثقافى العربى كله الان مطروح فى الميزان امام هذه المستجدات صحيح ان هذه الجماعة الصهيونية تظن فى غرور كفرور ذبابة **الجر فى ظرفة لافونتين انها تصنع القرار العالمى الغربى وهى ليست أكثر** من اداة لهذا القرار ، لكنها على اى حال استخدمت ومن ورائها التقنية الغربية خمسا وثلاثين سنة حتى اليوم لتدمير القوى العربية واطلاقها فى الفراغ نجحوا فى السياسة حتى جرجروا بعضهم الى القدس وامن **الاخـرون ان ٩٩٪ مـن أوراق اللعبـة بيـد امريكـا وسيطرة عمـلاء الموساد فنحا الان على طلب العدالة من لجنة كاهان وعلى انتظار الفـرج** من سقوط بيجن او تحرك مشروع ريجان .

نجحوا فى تصوير الهزائم ، بلى : جميع هزائم العرب كانت تصويرا كانت هزائم عدم خوض المعركة لا هزائم خسارتها العدو الغربى الصهيونى **فهم هذه الحقيقة جيد الفهم ويقيم استراتيجيته العسكرية عـلى أساس** الكسب دون معركة لان النصر على العرب لا يكون الا بدون قتال هزيمتهم الحتمية انما تكون فى ضمان عدم خوضهم الحرب ، وتكفى جولة هنا وهناك **لتتكفل كل الاجهزة والابواق بالباس العار والعزيمة لكل العرب .**

نجحوا فى سحق القدرات الاقتصادية فلا النفط قوة ، ولا المـال ترس فى عجلة التنمية ، ولا الخبرات البشرية دماء فى البناء .

وقد تقولون كل هذا انما من السياسة ومن المكرور اليومى فابن القضية الثقافية واقول نحن فى لب هذه القضية كل القضايا الان عـلى بعد واحد من المركز ، الثقافية بوصفها قوة من قوى الديناميكية الانسانية

وشكلا فى الوقت ذاته من اشكال الاتصال البشرى تتوغل اليوم فى شرايين المشروع السياسى وفى النسيج التكوينى لاستراتيجيات التنمية والتسلط الدولى ولعل التألق الحربائى للسياسة يكشف كالموشور ، واكثر من غيره **بكثير الالوان المكونة للطيف ، ... العدد الثنائى كان ينعرف منذ البدء وقد** عرفته التجارب والاحداث اكثر فاكثر حقبقتين متلازمتين .

الاولـى :

ان الهزيمة لا تكون كاملة الا اذا انتقلت من المستوى العسكرى الى المستوى الثقافى الا اذا استوطنت فى الفكر ليست الحرب وحدها التى تولد فى عقول الناس اولا ولا السلام وحده ولكن كذلك الهزيمة انها لا تكون حقيقية الا اذا استقرت فى مفاصل الامة الثقافية فى عقد القوة منها فى نخاعها الشوكى والمراكز العصبية لكى تكون نهائية يجب ان تتحول من خسارة معركة الى هزيمة موقف نضالى عقائدى الى هزيمة فى الفكر .

الثـانية :

ان اقسى الجبهات اصلبها اطولها مقاومة وعمر هى الجبهة الثقافية بناها المعقدة عصية على الانهيار السريع لانها مستودع الهوية الحضارية وهى تحتاج الى ما تحتاجه جميع الحروب من استراتيجية وايديولوجية وخطط تكتيكية وبدائل متنوعة وتجسس ورصد وبيات ومناورة ومراكز بحث واعلام وعمليات الاستلاب الثقافى تحتاج مع هـذا كلـه الى الزمن الطويل كحفر الماء المصخر كذلك التفتيت للبنية الثقافية وبخاصة اذا كانت كالبنية العربية قديمة التكوين ، تحمل عقيدة روحية كالاسـلام وتراثا خالدا ممدود الرواق على القرون وعلى الناس .

على ضوء هاتين الحقيقتين نقلت المعركة منذ زمن طويل الى الجبهة الثقافية العربية انها الجزء الساخن وغير المنظور منها ولكنه الاخطر والادهى فى الصراع الطويل واذا قالوا ان الاشجار تموت واقفة فكذلك تموت البنى الثقافية واقفة والجذور مهترئة بالسموم .

البنى الثقافية ومعطيات التاريخ :

ولنكن اكثر وضوحا هنا فنتوقف لنسأل اولا : ما البنى الثقافية انها واقع سلوكى جمعى تترسب وتتكثف فيـه القيم الدينية والخـبرة التاريخية والوجدان الجماعى وعلاقة المشاركة مع المحيط الانسانى فى كل واحد متكامل انها انماط من القيم والمعايير والمواقف من الكون والطبيعة

والمجتمع والانسان وانساق من الرموز والخلق الفنى التعبيرى بمختلف اشكاله ومستوياته ، وليس هذا كله بالخطير لولا ان الخصوصية الحضارية لكل امة « الهوية » الانا القومية انما ترسم فى هذا البنى وهى التى تعطى القوم من خلال كل اولئك ملامح التكوين الانسانى الخاص بهم انها مستودع الذات العميقة وحين لا ذات خاصة فلا انسان ، والعملية الثقافية من جهة اخرى ، عملية حركية ابدا واقصد متطورة على الدوام وحية على الدوام تأخذ وتعطى فى عمليات فرز وتنظيم وابداع ذاتى كنمو الزهر والثمر فى النبات الحى ، وهى غير محايدة ابدا ، بمعنى انها على الدوام عملية اتخاذ مواقف ، وفى حالة صراع لانها بطبيعتها ذات ايديولوجية من جهة وانعكاسات سلوكية وعملية من جهة اخرى .

ثم لنكن اكثر وضوحا هنا مرة اخرى نتوقف ايضا عند بعض الملاحظات الضرورية :

١ ـ الملاحظة الاولى :

وهى تتعلق بضرورة التفرقة الواضحة بين موضوعى التمازج الثقافى والغزو الثقافى فالاول طوعى ولقاح ضرورى للفكر ويتسم فى العصر الحالى بشأن خاص عمل معنى التجديد والعصرنة والاتصال بتطور الفكر والحياة فى اخر ما وصل اليه التطور اما الثانى فعمل عدوانى يرمى الى محو الطابع الثقافى العربى وتمزيق الهوية الحضارية وهو لا يشمل العرب فقط ولكن الثقافات الاخرى ايضا بوصفها الثقافات الاضعف ، وهكذا يجب الفصل بين جدلية الاخذ والعطاء الخصبة والضرورية مع العالم وبين عمليات محو **الذات التى تتم من جهة الاخر بالعدوان التخطيطى ومن جهتنا بالامبالاة** وعدم الوعى ان الانفصال الضرورى عن الغرب لضمان الامن الثقافى لا يكون بالتقوقع والانعزال ولكن بالمشاركة الايجابية الابداعية فى التدفق المعرفى للعصر .

٢ ـ الملاحظة الثانية :

ثمة فرق يجب ان يكون واضحا دوما فى الاذهان ويتعلق بعملية تمازج الثقافات فى العصور الاسلامية الاولى فقد تم التمازج فى جو حر منفتح على الثقافات الاخرى كافة وكانت الثقافة العربية الاسلامية يومذاك هى الاقوى والاشمل ، اما اليوم فعملية العصرنة والاتصال بالاخر ـ ونعنى بالاخر حضارة الغرب الخاصة ـ تجرى فى جو من الهيمنة الغربية الواحدية تقريبا كما تجرى بشكل سحق ومحو للذات الحضارية للاخرين والثقافة

العربية الاسلامية فى هذا المجال هى الاضعف تقنية ووسائل ومعارف ، ان الحلقة المحكمة التى تفرضها حضارة الغرب لا سبيل الى الخروج منها الا بمشروع ثقافى جديد يقوم على مشروع حضارى شامل (اقتصادى اجتماعى ـ ثقافى)، تقوده قيادة سياسية ثورية بالمعنى الحقيقى للثورية.

٣ ـ الملاحظة الثالثة :

ان مرحلة القرنين الاخيرين من العلاقات مع الغرب كانت واضحة المؤشرات فى اتجاه القهر المنظم والمتصاعد للشرق العربى ، كانوا منذعهد طويل قد سيطروا على شواطىء المغرب والخليج واليمن ، ولقد دمروا محاولة محمد على فى النهضة سنة ١٨٣٩ رغم بدائيتها وعسكريتها فى المشرق واحتلوا قبل ذلك الجزائر سنة ١٨٣٠ واجهضوا محاولات الدولة العثمانية للنهوض ثم احتلوا تونس ١٨٨١ثم مصر ١٨٨٢ بعد ان اغرقوها بالديون ثم تقاسموا المغرب ١٩٠٦ـ١٩١٢ واحتلوا ليبيا سنة ١٩١١ ، وانتهزوا الحرب العالمية الاولى ليحتلوا الشام والعراق ويقسموها خمس دول ويزرعوا اللغم الصهيونى على العدوة بين المشرق والمغرب ، النموذج الاوضح والافضح للنهايات التى كانوا يرجونها من هـذه العلاقات كان **المصـير الـذى رسموه للجزائر فى عمليات التبشير والفرسنة واقتـلاع الجـذور .**

الدارونية السياسية الاجتماعية كانت هى العقيدة الخلفية الموجهة لكل تلك الاعمال ، تنازع البقاء وبقاء الاصلح اى الاقوى كانا هما القانون **تحويل الاخر الى مجرد انتروبوس وتحويل وجوده الى انتروبولوجيا هو** الهدف المرسوم لان المشروع الرأسمالى الغربى لم يكن باستطاعته ان يعيش ويستمر دون هذه الهيمنة التى تؤمن له امتصاص الدماء بالشكل المتصاعد مع تصاعد الشره الرأسمالى ولقد تعاونت عمليات الغزو فى ذلك مع طبقات برجوازية محلية ناشئة تعرف لغتين وتجيد التعامل مع فئتى الاستعمار والجماهير المحلية على السواء .

كانت الحرب علنية القبعات العسكرية والمدافع لم تكن تخفىنفسها **كان الوجود الاستعمارى لا يخجل من عريه الوحشى ولا من انيابه استمر** ذلك حتى انتهت الحرب العالمية الثانية وكما مات الاستعمار القديم لتظهر الامبريالية الجديدة منذ تلك الحرب وكما تغيرت طبيعة الحرب العسكرية ووظائفها واسلحتها والاساليب التغير النوعى منذ تلك الحرب ، كذلك تغـيرت طبيعـة الحرب الثقافية الموازيـة وتغـيرت التغـيـر النوعى فى الوظائف والاسلحـة والاساليب ما يسمـى بالامبريـاليـة الجديـدة

تكوين عدواني متكامل الاركان يعمل فى تنسيق استراتيجي على مختلف الجبهات وبأسلوب آلات التحريك عن بعد ايضا ، التطبيع الثقافي شرط لاستمرار تدفق البترول ، وللصمت حول قاعدة تبوك او سقطرة ولبقاء اسرائيل تحمل العصا الامريكية الفليظة في الشرق العربي والاستمرار صب الفائض المالي والبشري فـي الكأس الغربية ، انـه صب الجليد في الشرايين للاستغناء عن حامـلات الطائرات .

استراتيجية الامبريـالية الثقافيـة :

ولست أخشى الاتهام بالتفسير التآمري للاحداث ان آمنت بأن ثمت استراتيجية غربية صهيونية متكاملة الحدود قـو تبلورت ووضعت خططها والبدائل موضـع التنفيذ ومنذ سـنين طويلة لتدمـير البنى الثقافية العربية ليس ذلك لاني لا أستطيع ان اصدق ان تلاقي جميع هـذه الخطوط المدمرة وتناسق خطوطها واعمالها هـو مجرد مصادفات تعيسة ، مجرد رقصـة من رقصات الالـه الهندي شيقا الذي يدمـر بأقدامـه كل شيء ولكن لان ادبيات الاستراتيجية الغربية وسياساتـه لا تخفى ذلـك ، ولقد تتحـدث عنه فى تبجح مـن لا يخشى اى رد فعل مضاد ثمـة مانستطيع ان نسميه بالامبريالية الثقافية الموازية والمتممة للامبريالية الاقتصادية ـ السياسية هـدف هذه الاستراتيجية تحويل الصخرة العربية الى ذرات رمل الى كثبان على الرياح ، هدفها تحـول أمـة الـ ١٥٠ مليون الى ١٥٠ مليون فرد ، كل جماعة منهم حزب وكل حزب بما لديهم فرحون هدفها تحويل هذا البناء الثقافى الدهرى الى كتل هلامية القوام متنوعة الالوان والتطلعات مختصمة مـع كل التكونات الثقافية الاخرى المعايشة لها عبر الدهر الاطول ، الهدف بكلمة تدمـير قدرة العربي على صنع مصيره وارادته التي تصنـع هذا المصير واما الخطط فتقدم على ثلاث نظريات متقابلة متكاملة هى : ـ

١ ـ النظريـة الاولى :

تقزيم العربي بالهزائم المتكررة من كل نوع ، بذلك ارتباطـه بترابه القومى بتدمير قيم الثورة والتحرر فى صـدره بقطـع علاقته الرحمية بالارض بتضليل خططه التنموية بتمزيقه عمـوديا الى فـرق وطـوائف ومذاهب متقاتلة ، وأفقيا الى مصالح وطبقات مصطرعـة ، وجغرافيا الى أقليات متناحرة على أشبار من الارض .

٢ – النظريـة الثـانية :

يقابل ذلـك عملقـة الغربي والصهيـوني بممارسـة السيطرة التكنولوجية بالتحالف مـع القوى المحلية الرجعية والعسكرية بتضخيم الجماعة الصهيونية كجماعـة قمعية بجعل اليهودي فى لـب الحضارة القائمة والايماء المكثف بدين الانسانية لليهود بتعظيم الواقـع الصهيونى العلمي والعسكري ، أليس بذى معنى ان تظهر الجامعة العبريـة مبكرة مـع ظهور المستعمرات الصهيونية الاولى وان يعلن رئيسها يوم الافتتاح انها للثقافة اليهودية ولبيـان دورهـا العالمي)

٣ – النظريـة الثـالثة :

نشر الثقافة المضادة وزرع مستعمراتها فـي الرؤوس كما تزرع المستعمرات فى الارض لزلزلـة القيم المستقرة والمبادىء الثوريـة ، ومعطيات الرؤيـة الواضحة ، أنـا ممن يعتقدون أن المنطقـة العربيـة بالذات تتعرض لأوسـع وأقسى عملية غسل دمـاغ عرفتها البشريـة اليوم ، قدرات القوى الكبرى التى نمتهـا التكنولوجيا والدراسـات المعرفية فى صياغة الادمغـة من جـديد وهندستها واعـادة ترتيـب معطياتها وأولويتها من الداخل ، لاتمارس في أى مكان من الارض كما تمارس على الارض العربية وهى تتجه بالهـدم الى منظومتنا المرجعية فـي المعرفة عقيدة وفكرا وسلوكا كما تتجـه الى قدراتنا التعبويـة فى الانفعال الايجابي والى قدراتنا التعبوية فى الانفعال الايجابي والـى قدراتنا الدفاعية في مقاومة التسمم ورفض غسيل الدمـاغ الفردي والجماعي ، وهـذه الاستراتيجية الثقافية المضادة انما تجـد أبشع التكثيف وأخطره في الممارسات الصهيونية لقهر المنطقة وتطبيعها حتى عمليات التثقيف الغربية المتاحة ليست فى النهاية الا لتدريب خيـول السيرك على الرقص مـع الطبل والضج ، ليست الغايـة منها الرقى بالخيـول ولكن خدمـة أصحاب السـيرك .

وعمليات التثقيف المضاد ليست مجرد أفكار معاكسـة وكفى ، أنها بنية استراتيجية متحركة ومتكاملة تنقل قيما ومواقف من مصدر البث والانطـلاق الى مراكز التلقي لاعادة تكوينها في بنى مماثلة ولهذا فهى متعددة المستويات والميادين ، متنوعة السلطة المرجعية مختلفة الاشكال والبدائل هى عملية اعلاميـةولكن على المدى التكويني المتمادي ، ولا تتم هذه العملية فى فـراغ ، انها ضمن حديـن خطـيرين اقصـيين أحـدهما سلبي والثـاني ايجابي على النحـو التالـى :

أ ـ الحشد التثقيفي الغربى مدعوما بالتقنية الغربية المسيطرة والصاعقة أحيانا ، وحتى نحن انفسنا انما نحن أحيانا بعض أدوات هذا الحشد التثقيفى .

ب ـ الفراغ التثقيفى العربى الذى يزيده التخلف والعجز الحالى هزالا وضعفا فى المقاومة ، ولا أقصد الفراغ بمعناه المادى فلافراغ ثقافى أبدا والانسان امتلاء ثقافي متحرك وانما أقصد السكونية والهشاشة والغربة عن العصر .

وبين هذا وذاك تنطلق عملية التطبيع الثقافي من منطلق القوة ، تنطلق من عال ، وفى نوع من الحركة الانقضاضية لتغطى مستويات الحقل الاستقبالي لتشمل قادة الفكر وصانعي القرار واصحاب التيارات الدينية والسياسية والفاعليات الاقتصادية والاجتماعية ، كما تسيل بين الجماهير وتدخل البيوت ـ كل البيوت ـ وتختطف الاطفال والشباب ، انها تستمد قوتها من اقترانها بالتكنولوجيا المتطورة التى هى أداة غزو بامتياز بمقدار ما هى حاجة العالم المتخلف بامتياز ايضا وأهم من هذا وذاك ان هذا الذي سميناه بالثقافة المضادة او بالتطبيع الثقافي أسوة بالتطبيع السياسى وتذكيرا به ، أخذ يطفو فى السنوات الاخيرة على وجه الاحداث دون مواربة ، ويركب الاقلام وكبار الرؤوس الثقافية فتفنى وتتلوى على مزماره كما أخذ يتزايد حجما وقوة والفرص مواتية فى ثلاثة ابعاد (فى قسوة الغزو ولو بلغ الاهانة ـ وفى تنوع الاساليب ـ وفي تسارع الايقاع لم تعد القوى الامبريالية الصهيونية تستطيع الانتظار كما كانت تنتظر من قبل لم يعد فى امكانها ان تمهل القطاعات الثقافية الوطنية وحركات التحرر والوعي حتى ترمم المواقف وتعيد بناء ما يتهدم من الحصون والقيم من خططها التكتيكية الدائمة متابعة الضربات بايقاعات متسارعة لاضاعة التوازن وتحويل الرؤية دوامة الوان أمام العيون أن القضية فى ابعادها الحقيقية ليست قضية غزو ثقافي فقط ، ولكنها قضية بنية متخلفة بمفهوم العصر تلتحم بالرغم منها التحام التبعية المتزايد باستمرار مع المشروع الامبريالي الغربي الشرقي وتتحمل بالرغم منها ايضا عقابيل ذلك الالتحام .

ألوان الغزو الثقافي :

لعلي أسرفت فيما يمكن ان يسمى عملية التنظير او اسرفت في التجديد والعموميات وتريدون ان نهبط ارض الواقع ونتلمس الممارسات ودبيب الدمار الاسود ولكني لا احتاج الى قطب النجوم او الى عيون زرقاء اليمامة ، لاوى الى الثغور التي تهدم والى زحف السرطان فى الابواب وتراكض الاشباح فوق الاسوار لو نظرت حولي ونظرتم حولكم لكفى ، يكاد المريب يقول خذوني ... مما يجرى كل يوم دعوني اذكر رؤوس ... الاقلام :

أولا : توجيه التفكير لقبول الامر الواقع :

ذبح البقرات المقدسة وتحويل سلم القيم الايديولوجي ١٨٠ درجة منظومه الفكري العربي كلها ادخلوها باسم الموضوعية والحضارة الخلخلة ، الفوا مفهوم الوطن ليضعوا بدلا منه السلام ومفهوم الامة ليقوم بدلا منها المنزع الاقليمي وشرعية الدفاع عن الذات لتقوم بدلا منها التسوية ، والعدل الاجتماعي لحساب الفردية ، وجعل الواقع منطلق التفكير لقبول الامر الواقع ، والغاء الامل بنصر السلاح مع اننا نقتل بهذا السلاح نفسه .

ثانيا : ابعاد الفكر الى أمور جانبية :

تفريغ القوى من الشحنات الثورية فك الصاعق منها فأهل الدين يشغلون بأفغانستان عن لبنان ، وبطول اللحى عن آيات الجهاد ، واهل الاحزاب يشتغلون بالكلام الايديولوجي عن الصراع الايديولوجي وبالاعداء الأبعدين فى اطراف افريقية واقاصي سيبريا عن الاعداء الاقربين ، واهل العلم وأبناء الجامعات تقرأ عليهم صباح مساء سورة العلم للعلم والفن للفن ، وتطرح لهم فى الدوريا الانيقة امجاد من آمنوا بالحياد ورهبانية البرج العاجي كما تقدم اليهم على اطباق من الذهب، آلاء هذا المذهب وايقوناته القدسية المباركة « كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » .

ثالثا : سرقة الكفايات العلمية :

عوامل الاغراء فى هذا الميدان اكثر بكثير من عوامل الطرد والمهم هنا الا تكون فى الوطن خميرة فكر وعلم وتراكم خبرات قد تتحرك فى الاتجاه الصحيح .

رابعا : السيطرة على منابع المعلومات واعادة تركيبها وتوزيعها :

تعمل على ذلك وكالات الانباء والاقمار الصناعية ومكاتب العلاقات العامة ودور النشر وشبكات المراكز الثقافية ومعاهد البحوث والخبراء وتمويل جهود المستشرقين والاكثار من برامج التدريب فى مؤسسات الترجمة والنشر والاناقة فى الدوريات ، كل ذلك لتثقيف هذه الشعوب الجاهلة المسكينة ، وتقديم الزاد الفكري لها لوجه الله تعالى ، واتذكر القمر الصناعى العربى فامسك قلبى بيدى ، هذا الفول المقبل فى سنة ١٩٨٤ ــ كما يقرون ــ سوف يخطف ابناءها ونحن ننظر يختطفنا ونحن ننظر ، انه سوف يسقينا كل قيم الدنيا وثقافات الاخرين ويشوهنا فى اعماق البيوت دون ان نستطيع له دفعا ، لماذا ؟ لسبب بسيط هو اننا لا نملك حتى الان مشاريع الانتاج الثقافي الاعلامي التي تملأ ساعاته لم نفكر بها بعد والتيار الثقافي الفريب سوف يصبح السيل الجارف من تراه يقف للسيل الجارف ...

فى القصص التي قراتم وقرات قصة ذلك الراعي ذي المزمار السامر الذي اراد ان ينتفم من القرية التي انكرته فمر فى ازقتها وخرج اليه الاطفال كل الاطفال فما زال بمزماره يقودهم حتى اوصلهم الى الهاوية .. القمر الصناعي المقبل ان لم نستطع سداد نغماته السحرية سيكون المزمار والهاوية .

خامسا : تضليل الرؤية الفكرية :

تضليل الرؤية الفكرية الصحيحة باسلوب الجوقة الاسلوب يقوم على نشر الوان الاعلامات المتناقضة حول القضية الواحدة فى وقت معا على تحليل المواقف والافكار بشكل متضارب والقائها فى السوق الفكرية كتبا وشائعات ومقالات ليبكين استاذ الفيزياء النووية فى معهد وايزمان فى رحو بوت هو الذي وضع لهذه العمليات قانونها منذ سنة ١٩٧٠ .. والنقطة المركزية فيه ان لا ضرورة لاستخدام الوقائع والحجج المنطقية والحق فى الصراع مع العرب ، ننطلق من خلال اهدافنا ومشاكلنا وننظر لها من خلال مصالحنا ونضيع الاخر فى متاهات التأويل .

سادسا : التركيز على تسخير افكار التدمير الثقافي :

تحويل افكار التدمير الثقافي الاساسية الى اعمال فنية وادبية وسينمائية من الدرجة الاولى او صبها فى القوالب العلمية ، تسخير عمليات الجمال والحقيقة لتسريب الفكر المضاد والسيطرة بذلك على مراكز الاقتناع فى نهج يحول اليقين الى الشك ثم يحول الشك الى

الحياد ثم الى الموقف المضاد ، هل انا بحاجة الى ان اذكركم بالافلام الصهيونية الكبرى امثال الاطفال يسألون لماذا ؟ امراة اسمها غولدا الوصايا العشر فى القديم او بالاعمال الادبية التي تعرفون ومنها ما حمل جائزة نوبل .

سابعا : تكرار الاكاذيب والاساطير الفكرية :

تكرار تلك الاساليب والاساطير الفكرية لتتحول الى حقائق بدهية ويتعطل فيها العقل النقدي اليس من ذلك تسمية الصراع مع الصهيونية بمشكلة الشرق الاوسط وقصة الستة ملايين جثة المحترقة فى أوشويتز ، وقصة الحق التاريخي اليهودي فى فلسطين وقصة الديمقراطية الصهيونية وقصة اسرائيل المهددة ؟ واسطورة الجيش الذي لا يغلب ، والنصر على ١٥٠ مليون عربي واسطورة اعمار فلسطين الصحراء وكفى بهذا حدودا وخطوطا ومثلا .

هل تريدون بعد هذا ان نعرف نهاية هذه الخطوط المدمرة اذا فانظروا نهاياتها المشهورة مع الممارسات الصهيونية التي تعرفون كما تصل العملية الامبريالية قمتها السرطانية فى فلسطين كذلك تصل خطط وممارسات التدمير الثقافي قمتها هناك ، انهم يسرقون التراث الشعبي فيدعون لأنفسهم الفولكلور والغناء والفنون والمصنوعات اليدوية وهم يدمرون الاثار فكم حاولوا مع المسجد الاقصى من محاولات الحرق والاحتلال ، كم الفوا من الآثار الاسلامية مقابل حجرة عليها حرف عبري وهم يشوهون التاريخ فيلفون منه حتى لدى الناشئة العربية هناك الفي سنة ليقفزوا من عهد يهودا واسرائيل قبل ٢٥ قرنا الى الحروب الصليبية الى دولة سنة ١٩٤٨ وانما التاريخ العربي كله فثلاث صفحات نصفها حول الوليد بن يزيد والقصة المكذوبة عن السكر فوق الكعبة والقول وهو يحرق القرآن ..

اذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب احرقني الوليد

وهم الوثائق التاريخية الاثرية فوثائق الجينيز محجوزة فى المتحف البريطاني ونيويورك للباحث الصهيوني اما نشاط الاقتصاد الاسلامي كله يهوديا وأول ما فعلوه حين احتلوا القدس سنة ١٩٦٧ انهم استولوا على مخطوطات البحر الميت لانها تنسف التوراة ، وحين ظهرت فى شمال سوريا وثائق ايبلا الاثرية منذ سنوات لتدمر اساطيرهم وانطلقت كل الابواق مسعورة لضمها الى التاريخ اليهودي مع انها تسبقه بألف سنة .

كما انهم يستخدمون الرواية والشعر لتأصيل الحقد على العرب وعلى البشر فى من يسمونهم من اجيالهم الناشئة « بورق الصبير » اما قرأتم بعض هذا الادب الصهيوني وهم يقتلون الطلائع العربية الثقافية فشاعر يجندل وكاتب يفجر وعالم ذرة ومؤسسة بحث تنهب ثم تدمر لانه يجب ان تخنق الطلائع ويذبح الربيع ، هل اذكر لكم الاسماء وانتم تعلمون ؟ حتى الدين الاسلامي لم يسلم من غزوهم فروزنتال ينشر فى عالم الاستشراق كتابه (التأسيس اليهودي للاسلام) ونمويتاين يجعل صلاة الجمعة بل الحج والصوم تقاليد يهودية ، كلهم يكتبون وكل يوم وبمختلف اللغات وفى الخط الصهيوني الواحد ليحولوا شتاتهم الثقافي الى قوة ثقافية ويحولوا بالمقابل حصوننا الثقافية الى أشتات .

وسائل الغزو الثقافي :

ما الذي يعطي هذه الوسائل الامبريالية والصهيونية قدرتها الهجومية وفاعليتها المدمرة ؟ سؤال ليس من الصعب الجواب عليه اذ يخطر فى البال على الاقل أربعة عوامل هى .

١ ـ التفوق التكنولوجي :

آخر وسائل التكنولوجيا تستخدم فى الاقمار الصناعية والسينما والتليفزيون ، والحاسبات الالكترونية ، والدراسات النفسية والنظم السيبرنتية بالاضافة الى عقدة النقص امام الاجنبي وامم المتقدم والمبتكر .

٢ ـ الاعلام :

السيل الاعلامي الوحيد الاتجاه من الغرب الى الشرق ما بين ٦٠٪ الى ٧٥٪ من نبتاع ونستهلك عن طريق الاقنية الاعلامية ، ومع هذه الثورة الكاسحة فى الاعلام انما يأتى من الغرب ، ٩٩٪ من مواقفنا اتجاهه مواقف انما يضعها ذلك الاعلام .

٣ ـ التبعية الثقافية والسياسية :

تحويل التبعية السياسية والوطيدة مع النظم الى تبعية ثقافية ثم تحويل التبعية الثقافية بدورها الى تبعية سياسية فى حلقة متوالية ينصبون الشيوعية عددا وحيدا وليست هى فى مفهومهم الماركسية اللينينية ولا التطبيق الاشتراكى ولكنها كل ما يهدد مصالح الولايات المتحدة ومايتوافق مع السياسة الامريكية ويؤيدون الدين فى المسجد

ويرفضونه ثورة فى الصدور وهم مع اضطهاد الطلائع والفكر الحر فى النظم الموالية ومع الشيوعي المضطهد في النظم المتمردة وأنهم ليدخلون قيمهم في صلب الانظمة وعلى أفواه رجالها ويبتكرون لهم الشعارات البراقة ويستخدمونهم جهاز أمن لاضطهاد الحريات واغراق المبدعين والمفكرين ودفع العملاء والمنافقين الى السطح والى واجهة الحياة الثقافية ليتولوا التهريج والتشويه .

٤ ـ البنية الثقافية المتخلفة :

اذا وصلنا العامل الرابع وصلنا مربط الناقة ، هذا العامل هو نحن هو البنية الثقافية العربية ذاتها نحن أكبر احلاف الخناجر المغروسة فى شراييننا فنحن من حيث الثقافة مجتمع قديم التكوين والجذور معقد التكوين بحكم تاريخيته واطاره الايديولوجى والجيوبولنيكي مكثف العلاقات والتراث يختلف فى نظرته الى الزمان والى الوحدة الحضارية والى الصيرورة التاريخية عن المجتمعات الاخرى ومنها الغربية وقد اعتاد تعايش القيم واستيعاب التناقضات الداخلية وجدلية الصراعات من ايثولوجية أو طائفية أو لغوية ، وواجه بها عبر التاريخ معركة الاستمرارية الاجتماعية ونحن بالمقابل فى ثقافتنا أيضا مدينة مكشوفة للقصف وتجهزة دفاعنا بالية ، من أيام السيف والترس وفي الابراج والاسوار الكثير من الشروخ ومن الحجر المتآكل ومن الثغرات الجاهزة الاستغلال واذا كان هذا المجتمع ككتلة ثقافية ذات أيديولوجية دينية لغوية تاريخية ذا خط كبير فان الخطر عليه بدورة كبير أيضا أنه مفهوم هذا العصر وفن مقاييس القوى فيه مجتمع متخلف وما هو التخلف ؟

ليس يعنى ذلك التقدم أو التاخير ولكنه مجموعة المعطيات والعناصر والاوضاع المتباينة التى تقابل التطور التكنولوجي الغربي ، انه ذلك الاختلاف فى انتاج ضرورات الحياة (البنية الاقتصادية) وفى انماط استمرار المجتمع (وأعنى علاقات الاسرة والجنس والبنية الاجتماعية) وتشكيل نظام الدولة (الفكر السياسي) ، مفهوم الانسان للزمان (الفلسفة والدين والايديولوجية) ومفهومه للجمال (الابداع الفنى).

ان التكنولوجيا الغربية عملقت الغرب، جعلت قواه اسطورة وجعلت العدوانية تتجه لذلك أشد شراسة ، انه أشبه بالبولدوزرات الضخمة أمام مساكن النمل ، وفى هذه المساكن مع ذلك تهافت وخواء وتصدعات فى الكيان وهذا واضح كله ـ ويدق العصر أبوابنا ونصر على الهرب واعطاء الغزو فرصة الغزو ، المفتون منا بالغرب يجعل من الغرب مركزا منا

جزءا من المحيط والاطار ، وعباد الماضى يجعلون من الماضى مركزا ومن واقعنا المحيط الاطار وفى الحالين ليس الواقع الغربى مركز الاهتمام ولا الدفاع ولكن الاخر وفى الحالين نجد هرب مكاني أو زماني في بيئتنا الثقافية تصادم أو افتراق ايديولوجى صعب الردم بين سلطتين مرجعيتين فى المعرفة والقيم مختلفتين أسسا وزمانا ومكانا واشكاليات الاولى اسلامية والاخرى غربية الواحدة تحاول الفاء الحاضر لحساب الماضى والثانية تلغي الذات لحساب الاخر ونخسر فى الحالين فرصة الكشف العقلاني النقدي عن تاريخية النموذجين المنصوبين ونسبته القيم آلتى يحملان، نخسر الاستقلال الثقافي للذات العربية تاريخيا نخسر تميزها خلال زمنها الخاص بسلطة معرفية ، مرجعية خاصة وبمعطيات فكرية جديدة مستمدة من واقع العصر ، انها غربة فى الزمان أو الغربة فى اعطاء ويأتى مع هذه الغربة موكب بين المواقف الخاطئة : منها انه لا اكليوس فى الاسلام ومع ذلك يصر بعضهم على أخذ الدور وعلى احتكار فهم الدين وتفسيره واطلاق الاحكام القروسطية باسمه ومنها أننا فى الدين مأمورون بالنظر والتفكير والعلم والعقل في نصوص لايأتيها بالباطل من بين يديها ولا من خلفها ولكنا نصر على أن نجعل من النصوص التى كتبها أناس مثلنا فى القرن الثالث والعاشر للهجرة اطارنا المعرفى النهائى وسلطتنا المرجعية التى تقبل الجـدل .

لقد كانت لهذا المجتمع العربى فى الماضى افرازات ثقافية ومذاهب فى التدين والفكر والقيم عاشها طولا وعرضا وتقاتل فيها وانقسم ولم تكن بذات خطر لانها كانت تستجيب لدواعى ذلك الماضى ولانه لم يكن ثمة قوة اخرى أقوى من ذلك المجتمع تستغلها ونحن نصر علـى نقل التمزقات الطائفية لنعيشها قتالا واحقادا من جديد ، ولنمزق بها جباهنا والصدر والكيان ، ونعطى حتى الجراثيم فرصة العيش على جراحنـا والدماء ونحن نصر على ان نقيم التعارض بل التناقض بين العروبة والاسلام لتفكيك ارتباط هذا المجتمع مع ان الله تعالى جمعها فى أحد عشر نصا قرآنيا وجمعها فى شخص الرسول الاعظم ، فأين تذهبون ؟

تغرات فى غزو الجبهة الثقافية :

على جبهة ثقافية اخرى تقوم ثغرات غزو اخرى اكتفى منها بثلاث .

١ ـ الثغرة الاولى : النظم السياسية العربية :

النظم السياسية العربية وما أكثر هذه النظم يقيم كل منها للانسان

العربي نموذجا ثقافيا خاصا به ينصبه كالحذاء الصيني ويريد الناس ان يكونوا على مثاله ومقداره وما فاض منهم عنه فالسكين وسوط الجلاد كفيلان بالزوائد ، ومن تأبى على القالب الحذاء ـ فلا مقام له وقد يخلع من اللسان أو تنصب كفه المحترقة عبره لمن أعتبر .

٢ ـ الثغرة الثانية : القيادات الفكرية :

القيادات الفكرية وأعشاشها فى الجامعات تسهم فى اضعاف الكيان الثقافى ، تلتقى مع الجامعات الاجنبية ومع الاغراض الاجنبية فى نقطة اساسية هي اعطائهم التقدم مع الحفاظ على التخلف فى الوطن العربي ستون جامعة وعشرات من مراكز البحث ومع ذلك فهى مجتمعات علمية راكدة ماتنشره من الابحاث العلمية معد له بحث لكل مائة ألف انسان عربى وتنشر اسرائيل أو ينشر باسمها بمعدل بحث لكل الف انسان .

٣ ـ الثغرة الثالثة : الطابور الخامس الثقافى :

الجماعات والطبقات التى ارتبطت مصالحها الارتباط العضوى مع المصالح والقوى الغربية حتى انسيت ذاتيتها القومية ، انها المجموعات المخترقة التى جرى لديها الانزلاق الكامل من المواقع الحضارية الذاتية وباسم التحضر والعصرنة ، الى مواقع العبودية للاخر ، من هذه الجماعات يتكون أخطر عناصر الطابور الخامس الثقافى ويجرى اختيار القواعد المحلية لعمليات الغزو .

عناصر المواجهة :

بعد هذه الجولة فى قلب المأساة الثقافية يثور ـ دون شك ـ فى الخواطر السؤال الدائم الذى يخرس اللسان الطويل ما العمل ؟ واقول لا مفتاح ذهبيا ولا سحريا للخلاص او على الاقل لا مفتاح ذا شق واحد فالعملية الثورية عملية متكاملة والقطاع منها يطلب على القطاعات الاخرى ويرتبط به ، واذا تركت هذا الجانب ـ رغم خطره ـ لئلا تتشعب بنا الدروب ، فانى قد أستطيع ان اطرح بعض الأفكار وان ركبتها بعض الاحلام فان للحلم ايضا مكانه ودوره وأول ما يخطر فى البال رفض المغالطات التى نستنيم على خدرها الحلو يحضرنى منها خمسة على الاقل هي :

١ ـ اننا نعيش حالة صراع وحصار وحرب بقاء صليبية ونظن أنها حالة سلم وتعايش عالمى ، الصورة الظاهرية مبادىء أمم وحقوق

انسان وحريات ومثل ، والواقع الخبىء افتك أنواع الحرب لانها القتل الاخرس لهوية الانسان .

٢ ـ اننا نستطيع بمجرد التلويح بالمباديء او استجداء العون أو شتم الغربى والصهيونى أو الدعاء عليهما على المنابر أن نلغى أنيابهما والمصالح وأن تحقق التحرر .

٣ ـ تصورنا اننا كتلة كبرى ولدينا تراث عريق ودين محفوظ وان السد لا يمكن ان ينهدم ، وننسى او نتناسى ان المستقبل غير الماضى والقوى الساحقة اليوم غير قوى الامس وكم ذهبت قبلكم من أمم .

٤ ـ ان ننتظر انفجار الغرب من الداخل ، واختناقه بقواه ذاتها وأن تنهار اسرائيل من نفسها بتناقضاتها .. ضلال ما تحسبون ، انها أحلام اليقظة ودون ذلك أهوال .

٥ ـ ان المعركة ضد الاستلاب الثقافى هينة او جزئية أو يكفى فيها مقابلة فكر بفكر أولَ مبادىء الآستراتيجيه المضادة الايمان بأن التناقض مع العدو جذرى وان المعركة معه معركة شاملة اذا لم نفهمها على هذا الاساس فقدنا الطريق الى الرؤية الواضحة والمقاومة الصحيحة وعمليات النضال ضد الاستلاب الثقافى انما تبدأ بالوعي الكامل لجذرية التناقض مع الثقافة الغازية والتأكيد الكامل على شمولية المعركة معها لا على مختلف الجبهات الحياتية فحسب ولكن على مختلف الشرائح الاجتماعية ، المعركة الثقافية ليست معركة نخبة ولكنها معركة مجتمع كاملَ وجماهير تريد ان تحتفظ بهويتها ورؤيتها الثقافية الكونية .

ويخطر فى البال بجانب هذا أمور بعضها فى التمنيات وبعض فى التخطيط والتدبير نذكر منها :

ـ ثمة فراغ ثقافى وايديولوجي ، وثمة نقص في طموح الرؤية الثقافية وفى توترها وفى الاتجاه ، ومن هنا تملأ الفراغ القيم الماضوية من جهة والقيم الغازية الغربية من جهة أخرى ومن هنا تنفذ القوى المدمرة ، وما لم تظهر روح ثقافية طليعية هى اشبه باجتراح النبوات تطلق ايديولوجية الغد تضع القوى المبدعة فى أقنيتها والدروب

فسيبقى الركب بلا مصباح ولا غد ، ليست هذه الثورة الثقافية الكيانية مجرد حلم ، ثمة بعض المعطيات الجاهز لحلمها وهى :

١ ــ ثمة أولا فكر دينى قابل للثورة والتفجر والعطاء ، هو جزء من ايجابيتنا التاريخية ولا بد من تقويته لا بعكاكيز القرون الوسطى ولكن بمنهجية الفكر الحديث ، لا عن طريق التعبد بالنصوص وانما بالعقلانية ، لا بالبحث عن الشكليات التعبدية ، ولكن بتحويل المثل الدينية الكبرى الى مؤسسات اجتماعية ، اقتصادية ، سياسية ، ان هذا هو التحدي الاكبر امام الفكر الديني .

٢ ــ وثمة الى هذا انساق فى التعليم وجهود ومدارس وجامعات ولا بد اذا من اعادة النظر فى هذه الانساق والجهود اتجاهات ثلاثة هى : ــ

أ ــ تعميق الهوية الحضارية العربية ليقوم عليها الولاء القومى .

ب ــ توجيه التعليم كله لخدمة حاجات المجتمع المحلى والقومى اولا ثم الاختصاص العام .

جـ ــ ادخال العقلانية والتفكير العلمى المنهجى على جميع مستويات التعليم .

فى بحث صدر منذ سنة فى اعتى المجالات الاستراتيجية الصهيونية قال كاتب المقال : ليس من خشية على اسرائيل وبقائها من العدو العربي الواسع او التحركات العربية العسكرية والسياسية او المقاومة الفلسطينية أو حتى من انقطاع المدد الامريكى فالخطر الوحيد هو ان يتجه العرب الى العلم والتكنولوجيا بشكل صحيح ، هنا تصبح نتيجة الصراع محسومة سلفا لصالح العرب .

٣ ــ وثمة الى هذا وذاك القيم القومية الكبرى الشاملة ولا بد من اعادة الصلة بها وبالنضال المر ، كل العواصف لم تطفئها بعد ، كل قوى الشيطان لم تستطع اغراقها فى الحمأ المسنون الوحدة على المستوى الثقافى موجودة ، كرامة الانسان العربي هي كل كيانه ، والحرية شمس في كل العيون ، لكن لا بد من الصراع العنيف مع قوى الشر وأبناء ابليس قبل أن تلتهب الارض ، الكرامة تفرض ولا تمنح كما ان الحرية تؤخذ ولا تعطى ومن أعجب العجب ان يكون لنا ثقافة عربية واحدة موحدة فى عصر الجمل ولا يكون لنا مثلها او ان ندعها تتفكك فى العصر الذى ألفى الجغرافيا وترابط بالاقمار وطاف حول المريخ .

٤ ــ وثمة مع هذا العمل على انجاز المشاريع الثقافية الكبرى الملحة ومن أهمها : ــ

أ ــ مشاريع الموسوعات العربية انها الاطار العلمي الشامل الذي لا غنى عنه للفكر العربي المعاصر كالموسوعة العامة والموسوعات المتخصصة كموسوعة الفنون العربيه وتاريخ العلوم عند العرب ، الفلسفة .

ب ــ كتابة التاريخ العربى من منظور علمى قومى ، انه التجذير للاصالة القومية والثقة بالغد ومن فروعه موسوعة الحضارة العربية الاسلامية وموسوعة التراث .

ج ــ انشاء جامعة علمية عربية للبحث العلمى وعلى غرار جامعة طوكيو وتحرير الفكر العربي من سيطرة النظم والاهواء السياسية ، وتعنى بتعميق الدراسات العلمية للمشاكل العربية فى التنمية وفى الاقتصاد والتكنولوجيا والتعليم وفى الفكر السياسى أيضا .

٥ ــ العمل الثقافى ضد الاقليمية المتزايدة ، بل الكفاح لها ، لقد توطدت بشكل فاجع على المستوى السياسى ونبتت لها الجذور والاظافر والمصالح على المستوى الاقتصادي وهي تحاول البروز على المستوى الثقافى وتفشل على الدوام لولا بعض المنافقين من عملاء السلطات والقوى الاجنبية لما كان لها ثقافيا أي طيف ، الفكر العربي وخاصة فى المستوى الثقافى يتكلم ويخطط وينتج على اساس الجماعة العربية الشاملة مشكلته الكبرى انه عند التنفيذ لا يستطيع ان ينفذ الا على المدى الاقليمى على البنية الثقافية العربية أن تقوى انتاجا وعمقا لدرجة التحول الى الهجوم على هذه الحواجز الاقليمية المتزايدة في الخطر وفى النمو رسالة هذه الثقافة فى الانقاذ على التركيز المستقبلي على دعم المشاريع التنموية المتعاونة والمتكاملة على تنفيذ الاستراتيجيات العربية الشاملة الاستراتيجية الثقافية التربوية العلمية الاجتماعية ، الاقتصادية ، بعضها موجود قائم وبعضها قيد الاعداد ، انها الرؤى المستقبلية التي تحمل مصابيح الغد .

٦ ــ ثورة الاداة الاعلامية ، هذهالقوة الشيطانية التي تستخدم ضدنا ليس من الصعب ولا من اسرار الكهنة ان تستخدم معنا ، لقد أصبحت الاداة الثقافية بامتياز ، انسان الغد سوف يكون قبل أي

شيء آخر ، ان هذه الوسائل ولن يسأل أحد ان كان شرعيا أو غير شرعى .

على أن دون العملية الاعلامية أمرين :

الاول : ان الاعلام دون عمل يعلم عنه مجرد كلام فى الهواء ، مجرد فقاعات صابون ولا يلبث ان ينقلب الى ضده ، وراء الاعلام الناجح لا بد من عمل ناجح لا بد للعملية الاعلامية من محتوى والا كانت كالكيس الفارغ من العبث أن يقف .

الثانى : ان السيطرة على انتاج الادوات الثقافية صناعية وتوزيعا وتطويرا هى شرط الاعلام الناجح فى الوقت الذى هى فيه ضمان الاستقلال الثقافى ، فحرية امتلاك الاداة الثقافية جزء من حرية الثقافة .

الخلاصـــة

بكلمة واحدة ثمة طريق وحيد هو النضال المر ، ولا خيار لاقامة البناء الثقافى الخاص فهى معركة البقاء ، واذا كانت الطيور المهاجرة الى الغرب ثقافة وفكرا وعطاء ، قد أخذت دورها وهى على أي حال كالغراب الذى أراد تعلم مشى الجمل ، فان القابعين عند أبواب التراث يحرسون التراث لهم مثل المأسوف على سخرة القديم ، جحا وبابه المعروف ، يقولون أنه كان بابا عظيما صفيق الاخشاب والمسامير وعليه عدد من الاقفال يحمل جحا مفاتيحها فى زناره ولكن الباب لا يتصل بأي جدار أو سور حول البستان بعض القوى تدافع عنه بحراسة الباب أما باقي الجهات الاربع فمتروك لابنـــاء آوى والذئاب وكل ذي ظفر وناب انتبهوا أيها السادة ان أبناء آوى والذئاب وكل ذي ظفر وناب ترتع في البستان .

دور القوى الوطنية في مواجهة التحديات

الدكتور فؤاد زكريا

دور القوى الوطنية فى مواجهة التحديات

تقـــديم :

فى الواقع لا أخفي عليكم انني أشفقت على نفسى كثيرا عندمـــا وجدت خطاب التكليف الذي طلب مني التحدث عن دور القوى الوطنية فى مواجهة التحديات السبب أننى أخاف دائما من العناوين الشديدة العمومية وقد بدا لي ان الموضوع واسع وعام الى درجة لا يدرى معها المرء كيف يمكن ان يعالجه أو يعلم بجوانبه حتى الرئيسة منها فى مدى ساعة واحدة من الزمن وعلى ذلك فلا بد من وجود عملية اختيار وانتقاء لنقاط أساسية هى التى يتم عليها التركيز فى الحديث وستكون هناك عشرات من النقاط الاخرى التى يستطيع أي مستمع أن يقول أنها لـم تعد ومن حقه أن يقول ذلك .

من ناحية اخرى هناك صعوبة فى تحديد موضوع المحاضرة فلدينا فى هذا العنوان على الاقل تعبيران ... يحتاجان الى مزيد من الايضاح

أولا : تعبير القـوى الوطنيـة :

ما هى القوى الوطنية ؟ هل تم الاتفاق بين الجميع عـلى تحـديد المقصود بالقوى الوطنية ؟ ... فى الواقع أن التعبير فضفاض الى حد كبير ويتسع لتفسيرات لا حصر لها ولا عد .

على سبيل المثال .. الكثيرون يستبعدون من ميـدان القـوى الوطنية تلك الجماعات التى يتسم نشاطها بالطابـع الدولى أو يتسـم بالطابع الذي يتخطى نطاق امة معينة او وطن معين لا لان هذه الجماعات غير وطنية ولكن لانها حسب نوع نشاطها وحسب أهدافها لا تقيد نفسها بالنشاط المحلى القومى فى بلد ما ، وعلى هذا الاساس يمكن أن بعض الجماعات أو الفصائل اليسارية نظرا لتركيزها على مفهوم الطبقة مثـلا أكثر من مفهوم الوطن ونظرا لان نشاطها دولى يتعدى الحدود وربمـا اعتبرت خارجا عن هذه القوى الوطنية اذا اردنا التحديد الدقيق جـدا للكلمـــة ،

ايضا نستطيع ان نقول ان بعض الجماعات الدينية نظرا لانها تركز على مفهوم الدين وتتخطى حدود اي وطن بعينه من الممكن لو شئنا التركيز الشديد استبعادها من هذا التعريف ... وانا اتكلم هنا نظريا ولكن على اى الحالات نستطيع ان نستقر على تعريف مؤقت لـ ما هي القوى الوطنية؟ اظن ان معظمنا سوف يتفق عليه وهو ان القوى الوطنية هى تلك الجماعات التى تعمل لصالح قطاعات عريضة من الشعب فى الداخل وتدافع عن الاستقلال الوطنى فى الخارج يبدو لى أن كل جماعة تعمل من أجل هذا الهدف ممكن ان تدخل فى نطاق ما نسميه بالقوى الوطنية .

ثانيا : عندنا فى عنوان المحاضرة مفهوم اخر يعتبره عدد كبير من الصعوبات وهو مفهوم التحديات : ما هو المقصود بالتحديات وما هى التحديات التى نعنيها عندما نتحدث عن مواجهة القوى الوطنية لها ؟ .

نحن كأمة عربية أو مجموعة من الاقطار العربية أمامنا عدد هائل من التحديات ، فهناك مثلا تحديات داخلية ضخمة تلقى على الجميع مسئوليات فادحة ، هناك تخلف ، هناك امية ، هناك في معظم الحالات اقتصاد تابع ، هناك تفاوت طبقي واضح هناك حكم فردي متسلط ... هذه مشاكل تعانى منها معظم الاقطار العربية وتشكل تحديا هائلا امام اي قوة وطنية .

ثم هناك خارجيا نوع آخر من التحدى تسلط الدول الكبرى وازدياد نفوذها بالتدريج فى المنطقة زيادة النفوذ على كافة المستويات المستوى الاقتصادي المستوى السياسى المستوى العسكري المستوى الثقافى .. الخ وربما تبلورت هذه التحديات كلها فى وجود اسرائيل هو التحدى الاكبر الذى تواجهة الامة العربيه الان ونستطيع ان نقول ان خلاصة التحديات السابقة هو التحدى الكبير الذى تتجمع فيه كافة التحديات السابقة .

هذه المجموعة من التحديات متداخلة الى حد كبير مجموعة التحديات التى نسميها داخلية وتلك التى نسميها خارجية فى واقع الامر متشابكة ومتداخلة وحتى التقسيم الى ما هو داخلي وخارجي فيها قد يكون تقسيما تعسفيا الى حد ما مثلا سأتحدث عن نظريتين فيما يتعلق بتلك الصلة بين التحديات الداخلية من جهة والتحديات الخارجية من جهة لكى ندرك مدى التشابك بين هذين النوعين من التحديات .

فهناك نظرية تقول أننا نعجز عن مواجهة التحدى الخارجي .. تحدى اسرائيل وتحدى امريكا لنا واهانتنا لمشاعرنا بلا انقطاع ، نعجز عن مواجهة هذه التحديات لاننا لم نقف كما يجب فى مواجهة التحديات الداخلية بعبارة اخرى هذه النظرية تقول اننا لو فى خـــلال السنوات الثلاثين أو الاربعين السابقة لو كنا أدينا العناية الكافية بتكوين اقتصـــاد وطني مستقل بقدر الامكان طبعا لا يوجد اقتصاد مستقل بالمعنى الكامل ـ لو كنا أدينا العناية الكافية بتقديم تعليم مستنير ومتفتح على مستوى عال للاجيال الجديدة لو كنا اهتممنا بنشر الديمقراطية وتعويد المواطن العادى المشاركة فى الحكم لو كنا قد ركزنا على هذه الامور لما استطاعت اسرائيل أن تصل الى ما وصلت اليه . هذا رأى يؤكد أن تركيزنا على الجبهة الداخلية لو كان قد حدث لما وجد لاسرائيل ولا امريكا منفـذ تنفذ منه الينا وتقهرنا بالصورة التي نلمسها الآن .

هناك نظرية أخرى تقول ما يبدو أنه عكس ذلك النظرية الاخرى تقول ان التحدى اصلا خارجى وان هذه الدول الخارجية التى تريد ان تتسلط علينا ... تناوئنا لكي تمنعنا من التقدم فى الداخل وجود اسرائيل وتسلط امريكا وغيره ... وغيره ... الهدف منه الا يعطونا الفرصـــة لكي نتنفس داخليا لكى نكون ذلك المجتمع الحيوى السليم المعتمد على نفسه الذى نهدف اليه يعني بعبارة أخرى حسب هذه النظرية التحدى الخارجي هدفه فى نهاية الامر منعنا من التقدم داخليا وعلى هذا الاساس تقول هذه النظرية اننا لن نستطيع ان نحقق هذا التقدم الداخلي ولن نستطيع ان نحقق اهدافنا التى نريد ان نكون بها مواطنا عربيا له مكان تحت شمس هذا العالم الا اذا بدأنا بمواجهـــة التحدى الخارجي وبعد ذلك نتفرغ لمشاكلنا الداخلية وسوف نستطيـــع فى هذه الحالة فقط أن نحلها .

هاتان النظريتان تتحدثان عن علاقة التحدي بالتحـــدي الخارجي وكما نرى فان النظريتين يبدو ان كلا منهما تقول بعكس الاخرى ولكن فى حقيقة الامر أنا لا أستطيع أن أقول أن واحـــدة منهما هي الصحيحة والاخرى خاطئة انا فى تصورى أن كلا من النظريتين صحيح والتعليل الوحيد لذلك هو أن مجموعة هذه المشاكل متشابكة ومتداخلة لا يوجد شيء اسمه داخلي فقط أو خارجي فقط ويكفي للتدليل على ذلك مثلا نأخذ قطاع الاقتصاد .. نحن نتحدث عن الاستقلال الاقتصادى .... والاستقلال فى التوجيهات الاقتصادية أن يكون الاقتصاد وطنيا ... الخ هذا القطاع يبدو لأول وهلة أنه داخلي لانه يمس حياة المواطن العادى

من الجانب المادى فيها بالذات ولكن فى واقع الامر قطاع الاقتصاد له انعكاسات خارجية لا أول لها ولا آخر بل ربما كان الجانب الاكبر من التحديات له أهداف اقتصادية فى نهاية الامر .

فأنا أريد أن أقول عندما نتحدث عن التحديات لن نستطيع أن نضع حدا فاصلا بالمعنى القاطع بين ما هو داخلى وما هو خارجى ، وايضا لا نستطيع ان نضع نوعا من الجدول الزمنى فنقول مثلا لنصلح الداخل اولا ونتصدى للخارج بسهولة بعد ذلك ، أو دعونا نتخلص من الاخطار الخارجية وسوف يصبح حل المشاكل الخارجية اسهل بعد ذلك .. : لا .. الجانبان نعم متشابكان والكفاح فى واحد منهما يستلزم حتما الكفاح فى الثاني فى نفس الآن وفى نفس اللحظة .

ما دمنا نتحدث عن التحدى أريد أن أضيف الى ما قلت شيئا أعتقد أنه يميز ذلك التحدى الخاص الذى يواجهه العرب فى المرحلة الحالية من تاريخنا ، انا اعتقد ان العرب يواجهون الآن تحديا من نوع فريد ، هو عبارة عن تهديد للبقاء ذاته .. لاستمرار حياتنا هذا هو الشيء الذى يتميز به التحدى العربي بالقياس الى كافة أنواع التحديات التي تواجهها أمة من الامم بأكملها .

الصراع العربي الاسرائيلي والصراع العربي الامريكي أخذ يتضح شيئا فشيئا وخصوصا في السنوات الاخيرة انه صراع من اجل البقاء وأقول ان هذا شيء متميز عن كافة الصراعات حدة حولنا ، لنأخذ مثلا الصراع العراقي الايراني ، هذا الصراع حاد وفيه ضحايا بعشرات الالوف وخسائر فادحة وهو وهو من اشد الصراعات التى شهدتها هذه المنطقة فى العشرين سنة الاخيرة ولكن بالرغم من كل هذا ... وفى نهاية الامر لا يكون هذا الصراع من اجل البقاء .بمعنى آخر اياكانت النتيجةالتى تحسم بها هذه الحرب فلن تهدد او تؤدى الى تهديد أساس لكيان أمة من الامتين من الممكن ان تأخذ احداهما مثلا . بعض المطالب زيادة عن الاخرى .. الخ تحزم ارادتها الى حد ما ولكن فى نهاية الامر سيظل الكيان لكل امة منهما قائما لكن واضح الآن وسيتضح أكثر فى المستقبل ان نوع الصراع الذى تواجهه الامة العربية من نوع اخر وهو صراع بقاء .

اضرب مثلا اخر ، نحن مثلا تعلمنا فى التاريخ ان هناك صراعا كان بين دولتين اوربيتين متجاورتين المانيا وفرنسا من ايام حروب نابليون مثلا ونترك ما قبل ذلك ، ثم حرب السبعين فى القرن الماضى ثم الحرب العالمية

الاولى ثم الحرب العالمية الثانية يعني عدد من الصراعات الحادة جـدا والعنيفة جدا ومع ذلك فان كل هذه الصراعات لم تكن فى النهاية تؤدى الى تهديد كيان امة من الامم ... اقصى شيء ان يقطع جزء من هنا ويضم الى هناك ، . بعض المطالب للشعوب .. الخ . ولكن مفهوم من الاول ان هذا الصراع سيؤدى الى بقاء فى النهاية للامتين .

لكن عندنا صراع من نوع خاص جدا وفريد جـدا وهو انه صراع يمكن ان يهدد بقاء الامة ذاته فى نهاية المطاف . لذا اقول هذا هو الشكل الخاص المميز جدا للتحدى الذى تواجهـه الامة العربية الان والـذى يفترض فى القوى الوطنية ان تعمل ما فى وسعها لكى تتصدى له .. نلاحظ ان اسرائيل تعلم هذا ، تعلم هذه الطبيعة المميزة للصراع القائم بينها وبين العرب ولذا نسمع اسرائيل تقول لحلفائها هذه الحجة اننا لا نملك ان نهزم فى معركة واحدة لان المعركة التى سنهزم فيها اول معركة سنهزم فيها ستكون هى الاخيرة وسوف يقضى علينا كدولة .

اسرائيل اذن تعلم تماما ان المسألة مسألة بقاء وهى حريصة على انها تعامل الطرف الاخر بالمثل يعنى ... كما ان الطرف الاخر لو هزم اسرائيل سيقضى عليها كدولةفهى تمشى بالتدريج من اجل القضاء علـى الطرف الاخر كأمة لها كيانها طبعا المسألة بالنسبة الى العرب لا تحسم فى معركة واحدة لذلك دائما الاسرائيليون يكررون ان العرب يملكون ان يهزموا مرات عديدة ولكننا لا نملك ان نهزم مرة واحدة انما مرة وراء مرة هى تهدد هذا البقاء اكثر فاكثر ومن المؤكد انه فى المدى الطويل اذا استمرت النتيجة بهذا الوضع الحالى سيكون هناك تهديد خطير لبقاء الامة العربية

ما الذى تفعله القو الوطنية اذن لمواجهة هذه التحديات ؟ انا .. سأتحدث عن بعض الاخطاء التى تقع فيها القوى الوطنية وسأكتفى بثلاثة اخطـــاء رئيسيـــة : ـ

الخطأ الاول : هو تفتت القوى الوطنية وانتشار الصراعاتالداخلية بينها وذيوع الاتهامات المتبادلة بالخيانة وبالعمالـة وعجز هـذه القوى الوطنية عن تكوين الحد الادنى من البرامج المشتركة فيما بينها .

واعتقد ان هذه النقطة فى غاية الاهمية لان التجارب فى كل يوم تثبت ان القوى الوطنية عندنا شديدة التفكك وهذا شيء ملفت للنظر لان عادة فى التاريخ الحركات الوطنية فى العالم نجد ان فى مرحلة الصراع التى تكون

فيها القوى الوطنية لا تزال تسعى الى تأكيد وجودها او الى الاستيلاء على الحكم او طرد غاصب او شيء من هذا القبيل تكون هذه القوى الوطنية عادة متكاملة ومتكتلة ويسهل جدا ان تتجمع على برنامج واحد ثم تبدأ الخلافات فى داخلها بعد ان تحقق اهدافها وهذا حادث فى اماكن كثيرة من العالم ليس فقط فى منطقتنا وانما فى مناطق كثيرة .

بمعنى النمط المألوف يكون هناك تكتل فى فترة الكفاح نفسها وتنسى الخلافات تماما ثم تبدأ هذه فى الظهور فيما بعد .

مثلا ـ الثورة الجزائرية النموذج الواضح كانوا متضامنين تضامنا رائعا فى مرحلة الكفاح وما كان احد يعرف هذا يمثل اى فصيلة او ذاك وحتى لو عرف لم يكن يهتم بذلك ، وفيما بعد للاسف حدثت تلك الصراعات بين القوى التى طردت العدو وقد يكون هذا شيئا مفهوما لان فى حالة حكم الاجنبى من الممكن يكون برنامج كل فئة مختلفا عن برنامج الفئة الاخرى .

حدث شيء مماثل فى ايران ايضا فى مرحلة طرد الشاه كانت جميع القوى متكاتفة الى حد بعيد وبعد ان طرد حاولت قوة واحدة التفرد بالسلطة على حساب القوى الاخرى وهذا شيء قد يكون معقولا ولو من الناحية النظرية ـ اما الشيء الغريب الموجود فى عالمنا العربى هو ان القوى الوطنية الموجودة عندنا منذ اللحظة الاولى فى المرحلة الاولى للكفاح نجد كل قوة تتهم الاخرى بالخيانة والعمالة والعمل لصالح العدو او لسلطة او كذا وكذا .

وتعجز عن تكوين برامج مشتركة او جبهات وطنية موحدة والواقع ان هذا من اشد صور التقصير فى عمل القوى الوطنية فى بلادنا ، احيانا يحدث العكس فيدخلون فى التحالفات الخطأ . يعنى كمثال هذه الايام فى مصر هناك محاولة غريبة من حزب التجمع للدخول فى شكل من اشكال التحالف مع تنظيم الجهاد الاسلامى ولا افهم كيف يمكن تكوين مثل هذا التحالف ، لا تحالف بين نقيضين تماما ومكتوب عليه منذ اللحظة الاولى ان يفشل وبالتالى ليس له اى قدر من النجاح وبالتالى سيكون على حساب مبادىء كثيرة من التى يكافح من اجلها الوطنيون .

النقطة الثانية ـ هى ان القوى الوطنية تكرر فى جميع الحالات ان الحل الأمثل لكل المشكلات الداخلية منها والخارجية هو الديمقراطية وكلما اعترضتنا صعوبة من الصعوبات نقول ان هذا حدث لانه لا توجد

ديمقراطية ولو كانت هناك ديموقراطية لما حدث ذلك . هذا القول صحيح بلا شك مائة فى المائة ولكن تحدث الامور وكأن هناك تكملة ضمنية غير مصرح بها لهذه القضية وهذا الجزء الاخر او التكملة الضمنية هى (ما دامت الديمقراطية لم تأت بعد فلن استطيع ان افعل شيئا) .. وهنا الخطورة والتقصير لان هنا اعتقاد ضمنى كأن الديمقراطية شىء يمكن ان يأتي الينا ، ويأتي الى القوى الوطنية ويقول الان تستطيعين ان تفعلي شيئا .

وهذا تقصير كبير لانه مع سعينا الى مواجهة اى تحدىمن التحديات يجب ايضا ان نسعى من اجل الديمقراطية وهو الشكل الاساسى للكفاح وليست المسألة هى قول المثقف او المفكر الوطنى هناك مشكلة كيت وكيت وكيت وسببها هو عدم وجود ديمقراطية ويعتقد انه ارضى ضميره وارتاح واثبت وطنيته عند هذا القول .

ان الاعمق والاخطر من ذلك ان فى نفس الوقت الذى نسعى فيه لحل اى مشكلة من المشكلات الداخلية او الخارجية يجب ان يكون هناك كفاح مماثل ايجابى من اجل تأكيدهذه الديمقراطية واقرارها . لان الديمقراطية لن تأتى الينا من السماء هذا مستحيل ، اذن يجب ان يقترن الكفاح الوطنى فى كافة المجالات بالكفاح من اجل الديمقراطية ولا يحق لاحد ان يعطى وطنيته هذه الصبغة صبغة انه اثبت لنا بان الديمقراطية بما انها غائبة فى بلد ما فستظل هذه المشاكل قائمة ثم يسكت عند هذا الحد ويتصور انه ادى واجبه باعتباره شخصا وطنيا .

النقطة الثالثة ــ قريبة من هذا او متشابهة له وهى انه كثيرا ما يحدث للقوى الوطنية المطالبة بالتغيير اولا ، ثم تقول مادام التغيير لم يحصل فلن يمكننا ان نفعل شيئا ، مثلا تقول الحكومات العربية فى كثير من الدول العربية ليست على المستوى الوطني الكافى وما لم تتغير الامور فلن يحدث كذا وكذا ... وهنا ايضا نحن ننتظر التغيير ونتصور انه علاقة المرور الخضراء التى ستسمح لنا بالانطلاق ولكن فى واقع الامر ان ماينطبق على الديمقراطية ينطبق على التغيير ــ من الذى سيحدث هذا التغيير ــ هل سيأتى من فراغ ام ان نفس القوى الوطنية هى المطالبة باحداث هذا التغيير ، ثم من جهة اخرى نقطة هامة . لنفرض ان التغيير لم يحدث فماذا نعمل ؟ هل نرى عدم حدوث التغيير يعطينا دليل البراءة والحق فى الوقوف مكتوفى الايدي ما دام التغيير لم يحدث وابرانا ذمتنا ونقول ما دامت الاوضاع على ما هي عليه اذن لن نستطيع فعل شىء .

اعتقد ان ما اطرحه للمناقشة والعرض من الاشياء الهامة ان يكون للقوى الوطنية ما اسميه برنامج حد اعلى وبرنامج حد ادنى . بمعنى ان يكون برنامج الحد الاعلى الكفاح من اجل الديمقراطية والتغيير وغير وغيره برنامج الحد الادنى هو ان تسأل نفسها لنفرض ان الاوضاع ظلت كما هى فهل نسكت ونقف مكتوفى الايدى ام اننا نستطيع ان نفعل شيئا حتى فى ظل هذه الاوضاع والذى يمكننا ان نفعله لجماهير الناس فى بلادنا لو بقيت الاوضاع كما هى هل يمكن فعل شىء ام ان جميع الطرق سدت امامنا ، لو استطاعت القوى الوطنية السير فى هذا الاتجاه اتصور انها تقترب كثيراً من الجماهير ـ وانا لا اقول هذا عن يأس فى التغير ـ ولااقول ان هذا يعني مهادنة القوى الوطنية للاوضاع الراهنة ـ وانما اقول ان هذه القوى الوطنية طاقة مفروضة لا تتوقف عن العمل فهى تسعى من اجل التغيير من جهة ولكن لا بد انيكون من ضمن برامجهاايضا عمل حساب للوضع الذى لا يحدث فيه التغيير ، فهل نسكت ام فى استطاعتنا عمل شىء حتى بالرغم من عدم حدوث تغيير ، واتصور ان السير فى الطريقين معا ما نسميه برنامج حد اعلى وبرنامج حد ادنى هذا من الاتجاهات الهامة التي يجب ان تفكر فيه القوى الوطنية وتعقد اجتماعات وتفعل كل ما من شأنه لرسم خطة محددة المعالم لما يمكنها ان تفعله على المستويين المستوى الاعلى والمستوى الادنى او مايجب ان يعمل فى حالة التغيير وما يجب ان يعمل فيما لو لم يحدث هذا التغيير .

وما اريد تأكيده مرة اخرى هو ان التحدي الذي نواجهه نظرا لانه تحدى من نوع فريد تحدى متعلق ببقاء هذه الامة او عدم بقائها فانالكفاح السياسى يجب ان يتخذ فيها طابعا خاصا . فى الحقيقة ان الدول التى تواجه مشاكل اقل من مشاكلنا اقل من مشكلة البقاء والفناء ممكن للقوى الوطنية فيها صراحة تسعى الى الحكم وتجد معارضة بينها وبين الحكومة وبين الحزب الحاكم او كذا او كذا ..... وهذه ستجد مجالا لكى يتم التنافس بين القوى المختلفة فى داخل المجتمع الواحد لكن القوى الوطنية عندنا مهمتها التنبيه الى شىء اخطر من هذا بكثير ، تنبه الى وجود خطر فناء آتي الى الامة العربية ولا أريد ان اكون متشائما اكثر مما يجب ولكن استقراء الاحداث يدل على ذلك وفى واقع الامر هذه الاحداث ربما ارغمتنا على الوصول الى موقف لا تكون فيه المسألة مسألة تنافس على الحكم او السلطة او الاستيلاء على مراكز الدولة فكل هذا قد يصبح شيئا تجاوزته الاحداث لان المسألة بقاء او فناء والخطر سيهدد الجميع سواء من هم داخل السلطة او من هم خارجها .

اسرائيل الان بدات تنتشر خارج نطاق الدول المحيطة بها مباشرة واستطيع القول بان فى ظل توازنات القوى بين العرب وبين اسرائيل ليس هناك ما يمنع اسرائيل عسكريا من احتلال اي عاصمة عربية اخرى ـ أي عاصمة عربية اخرى ـ كل ما يمنع من ذلك ان هناك توازنات اخرى اكبر بين الدول الكبرى هى التى تمنع من هذا ولكن من حيث الفرق بين القوى وبين الموارد وبين درجة التعبئة ودرجة اعداد المجتمع للمواجهة اقول بكل اطمئنان ليس هناك ما يمنع اسرائيل من دخول اى عاصمة عربية فى الوقت الحاضر هذا ليس كلاما يهدف الى تيئيس ولكن هو كلام واقعى ويحدد لنا خطورة الوضع الذى نواجهه وفداحة المشاكل التى تواجه القوى الوطنية .

واقول ليست العملية صراعا بين القوى الوطنية وبين حكومات بل هي اكبر لان هناك سفينة مهددة بالغرق والغرق سوف ينال الجميع ، اريد ان اختم هذه الكلمة الخطيرة فاقول من الاربعينات والخمسينات كانت الامة العربية تكافح من اجل الاستقلال الوطنى وفى الستينات كنا نكافح من اجل العدالة الاجتماعية وتقريب المسافة بين الطبقات وفى السبعينات كنا نكافح من اجل استرداد الارض المفقودة ، فى الثمانينات اصتحنا نكافح من اجل مجرد البقاء ومن اجل ان تجد اجيالنا الجديدة ابناؤنا الموجودون او الذين سيولدون فيما بعد مكانا يمكنهم ان يعيشوا فيه وتستمر حياتهم فيه كحد ادنى من الامن والسلام .

اضعف الايمان بالنسبة للقوى الوطنية ان تتحرك على النحو الذى يؤدى الى ايجاد شيء نكافح من اجله فى التسعينات .

وشكرا ،،،

الاستعمار الجديد وأزمة التخلف العربي

الدكتور جورج طعمة

الاستعمار الجديد وأزمة التخلف العربى

تقديم الرابطة للمحاضر :

لقد استضافت رابطة الاجتماعيين فى مواسمها الثقافية السابقة نخبة كبيرة من اساتذة الفكر ورجاله فى العالم العربي ولا زالت تنحو هذا المنحنى فى مواسمها الثقافية ، وقد حرصت الرابطة على ان تثار مواضيع هامة ومعاصرة وهذا يتطلب بطبيعة الحال ان تعالج من أساتذة اجلاء لهم باع طويل واجتهاداتهم تحوز الثناء والتقدير .

محاضرنا الليلة رجل يعرفه كل العرب شغل مناصب اكاديمية وسياسية فى بلده القطر الشقيق (سوريا) وشارك المحافل الدولية مدافعا عن الحق العربي والقضية الفلسطينية .

باختصار شديد تولى الاستاذ جورج طعمه عضوية وفد الجمهورية العربية المتحدة الدائم فى نيويورك ايام الوحدة ، ثم شغل منصب وزير الاقتصاد السوري من عام ١٩٦٣ الى ١٩٦٤ ومندوب سوريا فى الامم المتحدة من عام ١٩٦٥ الى عام ١٩٧٢ .

قام الدكتور جورج طعمه بالتدريس فى جامعات متعددة وجامعة دمشق والجامعة الامريكية فى بيروت وبعض الجامعات فى امريكا ، ومنذ عام ١٩٧٩ وهو يشغل استاذ قسم الفلسفة بجامعة الكويت ، له محاضرات عديدة ومؤلفات وكتب قيمة اهمها : المفهوم القومي وفلسفة تكوين العقل الحديث وصدر فى جزأين وطبع عدة مرات ـ المهاجرون العرب فى امريكا الشمالية ـ قرارات الامم المتحدة حول فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي ، وتقديرا لجهوده وثباته في الدفاع عن القضايا العربية فى مجلس الامن انعم على الدكتور جورج طعمه بوسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة وهو فى الواقع استحق الوسام العربي الاول فى هذا المجال عام ١٩٦٨ .

وموضوع المحاضرة هذه الليلة : الاستعمار الجديد وأزمة التخلف العربي ..

مقدمـــة :

اشكر للاخت الكريمة هذه المقدمة الراقية الكريمة التي ارجو واومل ان اكون مستحقا لها وان كنت لا اظن ذلك .

أيها الاخوة والاخوات اول ما يقلقني فى هذا الموضوع ابعـاده التاريخية والفكريـــة ، فعندما نقول الاستعمـــار الجديـد ونصف الاستعمار بأنه جديد فكأنما ننظر الى غصن على طرف من شجرة لها جذع وجذور عميقة ، فالاستعمار الجديد ليس ابن البارحة او الامس او اول امس ولكن جذوره بعيدة فى التاريخ وبالتالي كان لا بد من ان نلقي نظرة سريعة جدا على هذه الاصول العميقة للاستعمار الجديد لكي نصنفه فى مكانه فى الزمان .

تعريف الاستعمار الجديد :

والضرورة لذلك اني فى الواقع عدت الـى تعريفات للاستعمار الجديد سواء باللغة العربية او فى اللغـــات غير العربية فوجدت ان التحديات تختلف وبالتالي فان المحدد منذ البداية النقطة التي سننطلق منها فى معالجة الاستعمار الجديد كنا لا نصل الى الهدف الذي نريد ان نصل اليه ويقودنا ذلك الى النقاط التالية :

١ ـ الاستعمار الجديد ومفهوم العالم الثالث :

والاستعمار الجديد مرتبط الان ارتباطا عضويا بمفهوم العالم الثالث لكن لفظة العالم الثالث ليست باللفظة الجديدة فقد اطلقت منذ القرن الخامس عشر ، وعندما بدأت التجارة الدولية فى التوسع على أوروبا الشرقية وأطراف من الشرق الاوسط واسيا التي أخذت تنفذ فى تيار التجارة العالمية الكبرى ، ومع تطور العصور من القرن الخامس عشر حتى اليوم اكتسبت لفظة العالم الثالث معنى جديدا بل اخترعت اختراعا جديدا وكان ذلك فى نهاية الحرب العالمية الثانية عندما انقسم العالم الى شطرين كبيرين الشرق والغرب والعالم الثالث يعني تلك الدول التي كانت تحت الاستعمار فى قارات آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية وهو بذلك يأتي بعد العالم الاول .. الذي هو الغرب والعالم الثاني الذي هو الشرق (اي شرق اوروبا) .

٢ ـ المراحل التي تطور خلالها الاستعمار الى استعمار جديد :

أما من حيث تداول العصور التي يأتي في نهايتها الاستعمار الجديد فهي تقع في اربعة عصور وأشير هنا الى الدول المركزية ودول المنبع استعارة للدول الاستعمارية ، ودول المصب وهي الدول الهامشية استعارة للدول التي ننتمي اليها في العالم الثالث والواقع ان هذا التمييز يعود الى الاقتصادي الارجنتيني « ديريش » الذي كان أول من أوجد هاتين النظريتين .

أما هذه الادوار الاربعة فهي كالتالي :

أ ـ من عام ١٤٠٠ حتى عام ١٧٧٠ :

كانت هذه الفترة تمثل دور الرأسمالية التجارية في الدول المركزية وكان الاستعمار محصورا باكثره في الامريكتين ثم الاستيلاء التام على هاتين القارتين والقضاء على الشعوب الهندية والحضارات الهندية التي كانت تعيش مزدهرة فيها .

ب ـ من عام ١٧٧٠ حتى عام ١٨٧٠ :

كانت هذه الفترة تمثل دور الرأسمالية الصناعية وهو العصر الذي شهد الثورة الصناعية الاولى ومن حيث الدول الهامشية شهد ذلك أفول الاستعمار الاستيطاني كما عرف من قبل في الدور السابق في الامريكتين ، ولكن الثورة الصناعية الاولى ارتبطت فورا بالطاقة وبالتسابق على الموارد والمواد الاولية من أجل تغذية الثورة الصناعية كما ارتبطت ايضا بأسواق الدول النامية او دول الاطراف أو دول المصب من اجل تأمين اسواق لتصريف منتجاتها .

ج ـ من عام ١٨٧٠ حتى عام ١٩١٤ :

كانت هذه الفترة تمثل دور الرأسمالية الاحتكارية التي عرفت التروستات والكارتلات الكبيرة والتي عرفت من حيث الاستعمار ودول المصب ، الاستعمار الشامل والحكم المباشر لقطاع الصناعة وفي هذا الدور كانت الشركات هي التي تحكم مباشرة بواسطة حكوماتها لا العكس .

د ـ من عام ١٩١٤ وحتى الآن :

وقد شهدت هذه الفترة بداية يقظة الشعوب وبالتالي فالرأسمال الاحتكاري على ما فيه من حيلة او حيل ومقدرة على التلاعب اخذ

يتأرجح ظاهرا ليتمدد باطنا وفعلا ، واخذ يتظاهر بالابتعاد عن الحكم ليحكم بالواسطة لا مباشرة وفى هذا الدور الذي نحن فيه مع تناقضاته شهد بدء الثورات التحررية وتصفية الاستعمار اسما ونشوء الاستعمار الجديد وكما شهد الدور الثاني الثورة الصناعية الثالثة التي قامت على اكتشاف النفط وطاقة النفط فقد شهد الدور الذي نحن فيه الثورة الصناعية الثالثة القائمة على طاقة النفط والطاقة النووية معا او الطاقة النووية فى انتظار استنفاد الطاقة النفطية وهذا الطرح يظهر فيما يتعلق بنا اننا ارتبطنا منذ بدء الثورة الصناعية ارتباطا وثيقا وعضويا بتطورات هذه الثورة الصناعية فالمواد الاولى والمواد الاستراتيجية وخاصة النفط جعل مصيرنا مرتبطا الى اليوم بمصير الاستعمار وبآخر اشكاله الاستعمار الجديد وما خلف لنا الاستعمار القديم من استعمار استيطاني فى فلسطين .

٣ ـ النفط وقضية فلسطين :

أ ـ تعريف النفط :

لنأخذ تعريفا اوليا للنفط ، النفط مادة لزجة سائلة هيدروكربونية يمكن نقلها بالانابيب هذه الحقيقة البسيطة الاولية التى لا تحتاج الى اقامة الدليل ـ تقوم او قامت عليها نتائج جغرافية سياسية واقتصادية كبيرة .

ب ـ اكتشاف النفط وقضية فلسطين :

اكتشف النفط اول اكتشاف فى مصر فى حقلين وكان ذلك عام ١٨٨٠ وفى عام ١٨٨٢ تم الاحتلال البريطاني لمصر ثم اكتشف فى العراق ومن هنا نشأت الملازمة بين قضية فلسطين وبين النفط وقد يقال لماذا ؟ لان مصاب النفط على المتوسط من حيفا الى يافا الى صيدا الى طرابلس الى بانياس فى سوريا اصبحت لها ذات الاهمية التي للنفط بالذات طالما ان النفط كان يمكن ان يسال بالانابيب من ما بين النهرين من السعودية او الحجاز الى شرق المتوسط .

٤ ـ الاستعمار والحرب العالمية الاولى :

هذه الحقائق التي ذكرناها ما زلنا نعيش فى ظلالها ونتائجها حتى الآن وقد قلنا ان القرن العشرين شهد بداية الثورات الاستعمارية ومن هنا كانت المحاولة الاولى لانتصار الاستعمار والواقع اننا اذا القينا

نظرة على هذه المراحل التاريخية البعيدة من القرن الخامس عشر حتى اليوم ووصلنا الى القرن العشرين والى الحرب العالمية الاولى فالحقيقة هى أن تلك الحرب كانت حرب منافسة وتنافس وصراع على المستعمرات والمواد الاولى والنفط وكانت شبه هزة كونية كبرى تركت وراءها رجات كبيرة خلقت وديانا ورفعت تلالا وهضبات وغيرت شكل الكون والكرة الارضية .

٥ ـ الحرب العالمية الثانية ونظام الانتداب :

ان الحرب العالمية الثانية على ما فيها من هول الا انها لم تفعل سوى انها اثبتت النتائج السياسية التي خلفتها الحرب العالمية الاولى وبينتها عصبة الامم وما خلفته من نظام الانتداب الذي يتضمن الاستعمار الجديد فعلا اذ ان كلمة الانتداب تعني هذا المفهوم الذي بمقتضاه ينيب فريق فريقا بآخر ليقوم بالحكم فى الوقت الذي يكون فيه الفريق القائم بالحكم هو الفريق المستتر او المختفي ، باختصار يمكن القول بان عهد الانتداب هو عهد المفوض السامي والمستشارين واذكر على سبيل المثال لا الحصر ان الشاعر العراقى الكبير معروف الرصافى كان يتحاور مع وزير التربية وكان يسمى وزير المعارف حينذاك فقال له في قصيدة :

المستشار هو الذي شرب الطلا فعلا يا هذا الوزير تعربد

وعلى ذلك كان المستشارون فى تلك الايام هم الفريق يشربون ويطربون وكان وزراؤهم الذين يعربدون ، نعم لقد تغيرت الصورة ، وتغيرت الالقاب ، وتغير الممالك ولكن الحقائق فى جوهرها ما زالت واحدة .

٦ ـ مؤتمر السلام وخريطة الدولة الصهيونية :

فى هذه الفترة الطويلة وعوضا عن ان امسحها مسحا سريعا كنت اتمنى ان اقف عند يوم واحد منها يوم ١٩ فبراير (شباط) عام ١٩١٩ حين تقدم الزعيم الصهيوني « وايزمان » بخريطة لمؤتمر السلام في باريس تضمنت مطالب الصهيونية حينذاك كما تريد ان تكونه ، او ان يكون الحد الادنى للدولة الصهيونية المقبلة واعتقد ان كل مرب وكل انسان عربي يجب ان يطلع على هذه الخريطة لان هذه اللحظة التي نجتمع فيها ونتحدث ليست سوى تنفيذ وتكملة وتحقيق لما جاء فى هذه الخريطة .

ما الذي جاء فى هذه الخريطة ؟ جاء فيها ان الدولة الصهيونية المقبلة حدودها المتوسط من الغرب ومن الشمال سفوح جبل الشيخ الذي تضمن منابع مياه الليطاني الحصباني والانهار الاربعة الاخرى . وقال وايزمان بالحرف الواحد « بأن هذه الانهار هي حياة اسرائيل وفى الجنوب قرية كسرة قرب دمشق وهي تبعد عن دمشق مسافة خمسة وعشرين كيلومترا والجيش الاسرائيلي الآن فى سحسه وهو فى هذه المسافة من دمشق كما انه على هذه المسافة فى البقاع اما فى الشرق فالاردن بضفتيه غربها وشرقها امتداد الى خط سكة الحديد الحجازي التي تقرب من دمشق الى الحجاز ومرورا بمعان ، تصوروا أيها الاخوة هذه الدولة الكبيرة لقد راينا فى بداية حياتنا راي العين قسما اولا منها وهو ما اعطته لها الامم المتحدة بموجب التقسيم ، اما الان فليست فلسطين كلها محتلة وليست الضفة الغربية محتلة بل الجولان بسكانها اصبحت لها اذ ان مائة الف سوري هاجروا منها وما لا يقل عن ثلاثمائة او اربعمائة الف عربي هاجـــروا الى الضفة الغربية ويأتي محلهم الاستيطان الصهيوني .

هذه الامور لسنا الان نقرؤها فى الكتب ولكنها احداث خرجت من التاريخ المجهول لتصبح حقائق تاريخيـــة ماثلة وواقفة امامنـــا بأشخاصها ومعاركها وايامها ولياليها لكنني للاسف لا استطيع ان اقف هذه الوقفة فكان لا بد بالتالي من ان نمر سراعا عليها .

٧ ـ الاستعمار الجديد والتدخل المباشر :

ان الدور الحالى الذى نحن فيه يأتى نتيجة لنهاية الحرب العالمية الثانية وما قام بعدها من اوضاع وهنا نرى الاستعمار الجديد يدخل فى مرحلة جديدة من مراحل تكونه فاعطاء الاستقلال للشعوب التـــي اطلق قادتها شعارات وطنية كسيلان (سيريلانكا الان) وبورما ومعظم المستعمرات البريطانية فى افريقيا واسيا (بالبريطانية والفرنسية) اخذت استقلالها السياسي بسرعة وهي ظاهرة معروفة وفى جميع هذه الحالات يصل الاستعمار القديم محل الاستعمار الجديد بمعنى ان العلاقات الاقتصادية القديمة ظلت قائمة واما الاستقلال السياســـي الذي اعطي لهذه البلاد فلم يكن اكثر من صورة او ستارة يخبىء وراءها الاستقلال الاقتصادى فكان استقلالا شكليا أما الصعوبات الكثيرة التى جابهها قادة العالم الثالث فقد كانوا اولئك الذين لهم مطالب اصلاحية والذين يريدون فعلا اصلاحات اجتماعيـــة واقتصادية واعـــادة بناء

المجتمع من جديد فأما هذه التطورات كان لا بد من ان تتدخل القوى الكبرى .

لكن من هى القوى الكبرى الآن ؟ فرنسا وانجلترا خرجتا من الوجود الاستعماري ، الاتحاد السوفيتي ليس دولة استعمارية بل كل ما يريده بعد أن فقد ٢٢ مليون مخلوق بشري هو ان يستطيع ان يضمن حدوده وأن يدفع عنه الاعتداء ويذكر أيدن في مذكراته – وهو انسان غربي أوربي عاش الاستعمار مدخلا يقول فيه ان امريكا الان هى التي ورثت الاستعمارين البريطاني والفرنسى بل وأضافت الى ذلك مستعمراتها ايضا ولذا لجأ الحكام الفربيون وفى طليعتهم امريكا الى استراتيجية القدم والتدخل المباشر واشاعة عدم الاستقرار والمجيء بالانظمة التي تتميز بالمحافظة الشديدة ، وقد طلب ديركسل أحد أعضاء مجلس الشيوخ الامريكي من هيئة الدراسات بمجلس الشيوخ ان تحدد عدد المرات التي تدخل فيها الجيش الامريكي فى مختلف انحاء العالم بين عام ١٩٤٦ ، عام ١٩٧٥ فظهر أنها (٢١٥)مائتا وخمس عشرة مرة .

٨ – أثر حرب فيتنام على السياسة الامريكية :

بعد الفشل فى فيتنام اتجهت امريكا الى تقوية حلف الناتو ولكن بعد ست سنوات من نهاية حرب فيتنام كان وزير الخارجية الامريكية (هيج) يصرح فى استجواب أمام مجلس الشيوخ الامريكي بأنه سوف تحتل محاربة الارهاب الدولى محل حقوق الانسان فى اهتماماته بيد ان اصطلاح الارهاب الدولي ليس بهذه اللفة السياسية التي أوجدها هيج الا تورية لمحاربة الثورات والحركات التقدمية في العالم الثالث .

٩ – المدارس السياسية التي تحكم امريكا الآن :

كانت لرؤساء امريكا – منذ عهد ترومان مرورا بأيزنهاور فكيندى فجونسون فنيكسون نقول كانت لكل واحد من هؤلاء الرؤساء نظرية تتعلق بمقاومة العالم الثالث والثورات التحررية فيه واحتواء الاتحاد السوفيتي أو أية حركات من هذا النوع ، وهذه المدارس الثلاث هى كالتالي : –

أ – الاولى مدرسة كيسنجر في السياسة الواقعية أو المعالجة القائمة على ميزان القوى مشددا على القوة العسكرية والتحركات

الامريكية او حادية الجانب التي اخرجت حلفاءها في بعض الاحيان كانفتاح امريكا على الصين الذي احرج اليابان او خوض امريكا حرب فيتنام الذي عزلها عن معظم حلفائها الغربيين بل وقسم امريكا ذاتها الى قسمين كبيرين كما لم تعرف امريكا من قبل مثل ذلك ابدا .

ب ـ المدرسة الثانية هى التى تدعو الى حلف ثلاثى بين امريكا واوربا الغربية واليابان من اجل مجابهة دول العالم الثالث والحركات الجذرية والقضاء على انظمتها وذلك فى جبهة موحدة .

جـ ـ المدرسة الثالثة وهى الحاكمة الآن وتعتبر مدرسة الجناح الايمن التي يقودها الرئيس ريجان والتي تقول بأن امريكا تتخلى عن الكثير امام الاتحاد السوفيتي المتزايد القوة والتي تحبذ معالجة عسكرية كاملة في التعامل مع انظمة العالم الثالث والانظمة التحررية والتى تنادى بوقفة عسكرية شرسة قوية دون اي تراجع امام اعتداء سوفيتى او اية ثورة فى العالم الثالث التي يجب العمل على سحقها مباشرة او بالواسطة كما فعلت مثلا مؤخرا ضد الثورة الفلسطينية بواسطة اسرائيل .

١٠ ـ اهداف المدارس الثلاث :

ومع ان هذه المدارس الثلاث تختلف فى التكتيك لكنها تتفق استراتيجيا فهى كلها تتفق على الاهداف من حيث مجابهة العالم الثالث ولنأخذ على سبيل المثال لا الحصر سياسة كيسنجر فى العالم العربى بعد عام ١٩٧٣ فقد وضع هدفين هما :

الاول : تفريغ النفط العربي من ان يشكل اية قاعدة قوة فى البلاد العربية وللبلاد العربية وقد نجح فى ذلك .

الثاني : ازالة اى اثر كان لحرب رمضان اكتوبر عام ١٩٧٣ وبصورة خاصة للايام الخمسة الاولى منها التي ربح العرب فيها والتي بعدها ركض ديان يقول لجولدا مائير (الهيكل الثالث اى اسرائيل أوشك على الانهيار فقد كان هم كيسنجر ان يزيل اى اثر لهذه النتائج وكما سبق ان قلت نجح بالثاني .

١١ ـ وسائل الاستعمار الجديد كما تقرها امريكا :

تتلخص تلك الوسائل فى الآتي : ـ

أ ـ اقامة القواعد العسكرية وامتدادها من المغرب الى مصر الى المحيط الهندي مرورا بالخليج العربي ومن اجل اقامة هذه القواعد قدمت مساعدات امريكية عسكرية بمليار دولار وشكلت قوات التدخل السريع من أجل التدخل في أية جهة في العالم ولاول مرة بعد حرب فيتنام .

ب ـ التدريب العسكري والامني فالمدربون العسكريون للبنتاجون منذ عام ١٩٨١ يقومون بهذا الدور حيث يوجد ٣٢٣ فريقا للتدريب على الامن فى ٥٣ بلدا ويتألفون من ١٦٧٧ ضابطا كما ان جهاز المخابرات يفوق في الاهمية التدخل الخارجي وذلك لانه يعتمد على التغلغل والنفوذ الداخلي الذاتى وله تسعة أساليب فى ذلك لا استطيع استعراضها كلها انما الغاية هى اشاعة عدم الاستقرار وقلب انظمة الحكم واما المدى الذي وصلت اليه فأصبح يتضح مؤخرا بفضل عدد من الكتب نشرها كتاب كانوا سابقا في C. I. A. (المخابرات المركزية) وعدد منهم اما انه يحاكم اليوم أو انهم فارون لا يستطيعون الدخول الى امريكا .

جـ ـ نشر الكتب : فى المرة الماضية عندما ألقى الزميل الدكتور فؤاد زكريا محاضرته القيمة قال احد السائلين عن كوبلن وكتابه لعبة القوى الذي دخل التاريخ الان والكتب التي ظهرت فى الخمس سنوات الاخيرة هى التالية للكتاب المذكورين بعد :

ـ فيليب ايجى وهومطارد خارج امريكا وكتابه (داخل الشركة أو مذكرات في C. I. A.) .

ـ فيكتور مارشتووكتابه الـ C. I. A. وعبادة المخابرات .

ـ جون استوكلمنت وكتابه بحثا عن الاعداء ـ قصة الـ C. I. A.

ـ وليم ايفلان وكتابه حبال الظن وهذا الكتاب يعالج ايها الاخوة أعمال المخابرات فى الشرق الاوسط بالذات ويتناول جميع الاشخاص العرب خلال الخمسينات الذين تعاملوا مع الـ C. I. A. حتى مطلع الستينات .

د ـ تقارير مجلس الشيوخ الامريكي .

هـ ـ الاغتيال : واما عن اغتيال عدد من رؤساء الدول الاجنبية مثل ايديل ، لومومبا ، روخبدو ، اشنايدر ، جوادر ـ فحديثهم يرد

في جميع هذه الكتب ناهيك طبعا عما وقع فى شيلي عام ١٩٧٣ ..... واغتيال الينبي والذي تم استجوابه فى مجلس الشيوخ الامريكي سئل كيف تم ذلك ؟ فقال قدمت ثمانية ملايين دولار لعمل الشركات لاجل التوقف عن العمل تماما لان كنيوش رفض ان يدخل الساحة ويقوم بالانقلاب مالم تتوقف حركة الاعمال تماما واما ما قامت به شركات النحاس الامريكية أنا كونتر وغيرها وخاصة الـ I. T. T. والدور الذي لعبته فهذا شيء لا يوصف .

في هذا الاطار ومن الاساتذة الجامعيين اذكر الكتابين التاليين مايكل كلير ـ تغلبة العالم الثالث بالضغط والارهاب وتأييد الولايات المتحدة للانظمة الرجعية الضارة . ، ومن أساتذة الـ M. I. T. وهو من أكبر معاهد أمريكا ـ الاستاذ لوام شونسكي وادوارد هيرمان وكتاب الاقتصاد السياسى لحقوق الانسان ويتناولان فيه بتحديد دقيق التلاعب بلفظة حقوق الانسان فى امريكا .

و ـ رصد المبالغ الضخمة والمؤسسات التعليمية :

يظهر مارشيل ان من اصل ١٦٥٠٠ موظف فى الـ C. I. A. ١١٠٠٠ منهم شاركوا بهذه وان من اصل موازنة سنوية ٧٥٠ مليون دولار حوالي ٥٥٠ مليون دولار كانت تنفق على هذا الارهاب أو التغلغل الداخلي وهنالك الدفع بمعرفة الـ C. I. A. ومبالغ ضخمة لعدد من رجال الحكم ورؤساء الوزارات والقادة لا فى العالم الثالث فقط ولكن فى اليابان ، ايطاليا هولندا ، فرنسا حتى وصلت الى العائلة المالكة فى أوروبا ثم هنالك مؤسسات تعليمية ظاهرها واسمها لا يدل الى انك امام كلية من الكليات ، مقررات تعطى ونقاط تحسب وامتحانات تجرى ، ونذكر من هذه المؤسسات : مركز العمل الافريقى الامريكى ، والمعهد الاسيوى الامريكى للعمل الحر ، المعهد الامريكى لانماء العمل الحر وهو خاص بأمريكا اللاتينية ، وتسخر هذه المعاهد كلها من أجل مد الشركات الامريكية متعددة الجنسيات بالعمال والموظفين ولخدمتها ، اما ما كان منها لقلب نظام الحكم فنجدها فى جواتيمالا ، وجمهورية الدومنيك ، وجويانا حيث أطيح بشريك جامكان وهو قائد الاشتراكيين ومثقف كبير انتخب انتخابا ديمقراطيا مرتين كما انتخب أمريكي وبالطبع تظل قضية شيلي ومقتل الينبي هي أرهب هذه الحوادث كلها .

١٢ ـ الاساليب الحديثة للاستعمار الجديد :

ان تطبيق أساليب جديدة فى العالم الثالث اليوم بالاضافة الى **التضييق والضغط الاقتصادى والتجويع واستمرار التبعية الاقتصادية** المفروضة على العالم الثالث كلها أمور مازالت قائمة واما الاساليب التى ادخلت فى العشرين سنة الاخيرة فقط منذ أيام كنيدى فنأتى على بعض امثلتها فيما يلى :

أ ـ وكالة التنمية الدولية A. I. D. وهى بمثابه ادارة تابعة لوزارة الخارجية الامريكية ومهمتها توسيع وتدريب مؤسسات الشرطة وضباطها وموظفيها فى العالم الثالث بمعنى انها مخصصة للعالم الثالث .

ب ـ الاكاديمية الدولية للشرطة فى واشنطن وقد دربت عشرة آلاف شرطى من ٧٧ بلدا من بلدان العالم الثالث وبعد عودتهم الى بلادهم يزودون بالمعدات وآخر وسائل التعذيب واحدثها وكذا السيارات المصفحة وقد دافع مساعد وزير الخارجية الامريكية أمام الكونجرس عن هذه الامور بقوله « انها ضرورية من أجل ازالة التهديد الداخلي للامن فى بلدان العالم الثالث واشاعة الاستقرار وتأمينه **فاذا** لم يتهيأ لنا ذلك كان من الضرورى أن نقوم بعمليات جراحية رئيسية يمكن ان نستغنى بها عنها » وبالرغم من منع الكونجرس الامريكى لها نقدا استطاعوا من خلال ثغرات أوجدوها ان ينفذوا من خلالها الى تحقيق ما يريدون باتباع الاسلوب التالى (جـ) .

جـ ـ لجنة البرنامج الاولى لمراقبة المخدرات : وهى تنفق سنويا حوالى ١٤٢ مليون دولار على مؤسسات الشرطة فى العالم الثالث ويتم تدريب مليون شرطي موزعين في ٤٠ بلدا وذلك من قبل مستشاري الامن العام فى امريكا ويتصل ببيع الاسلحة بيعا مباشرا تدريب ضباط الجيوش ففى الفترة ما بين عام ١٩٧٣ ، ١٩٧٧ تلقى ما مجموعه ١٢٧٢٣ ضابطا من البلاد العشرة وهى الارجنتين ، البرازيل ، شيلى ، اندونيسيا ، الحبشة ، ايران ، تايلاند ، أورجواى ، كوريا الجنوبية ، الفلبين ، وطبعا اسرائيل تلقى هذا العدد من الضباط تدريبهم ودراستهم فى الاكاديميات العسكرية الامريكية مع تشديد خاص على مقاومة التحركات الشعبية وقمع حركات الجماهير وتوجد كلية خاصة لهذه الغاية فى قناة بنما تخرج منها فى الفترة من عام ١٩٤٩ وحتى ١٩٧٦ عدد ٣٣٠٠٠ ـ ضابط ليحكموا امريكا اللاتينية .

د ـ الهجرة : وهى وسيلة من وسائل مقاومة الثورات قوامها المنح الانتقائى الاعتباطى لحق اللجوء للاجئين وتطبيق حقوق الانسان بصورة انتقائية وعلى ان يكون لها علاقة بواشنطن وعلى ان يكون لواشنطن علاقة بالدول التي يأتي منها المهاجرون فمثلا قبلت امريكا ٨٠٠ر٠٠٠ مهاجر من أوروبا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية لانهم كانوا يغادرون بلادا اشتراكية شيوعية من شرق أوروبا ولكن فى عام ١٩٣٨ عندما كانت امريكا حريصة على علاقات حسنة مع هتلر فقد قبلت فقط ١٩٥٠٠ مهاجر الماني من اصل ١٣٩ر٠٠٠ يهودي الماني وافراد نقابات عمال طلبوا الهجرة لامريكا فرفض طلبهم ، والعدد ١٩٥٠٠ الذى ذكرناه ينقص بعشرة آلاف عن قوة الهجرة الممنوحة للالمان وعندما قدمت لائحة فى الكونجرس عام ١٩٣٩ لمنح ٢٠ر٠٠٠ من الاحداث الالمان لدخول امريكا رفضت انذاك .

وفى عام ١٩٤٩ حضرت انا بنفسى مناقشة قضية فلسطين فى الامم المتحدة (واحرص دائما على القول باننى كنت فى مطلع حياتى الدبلوماسية لا اتهم بالكبر كثيرا) .

وقد كان هنالك المعتقلون والمسجونون فى سجون أوروبا وكان الضغط على فلسطين من اجل ان تتلقى نور ومباشرة مائتى ألف من معتقلات أوروبا وقدم اقتراح فى الجمعية العامة للامم المتحدة مؤداه ان تتوزع الدول الاعضاء فيها هذا العدد مباشرة على ان ينال كلا منها نصيبه وفقا لمقدرتها على الاتساع والاستيعاب ، وقد قاومت امريكا هذا الاقتراح وحاربته وهزمته .

هـ ـ التغلغل الرسمى فى الجامعات : هنالك ايضا التغلغل الامريكى الرسمى فى الجامعات وعلى اعلى المستويات الجامعية وكلنا نعرف كيسنجر وخليفته موندیل وما وجهه من اهانات لشعوب العالم الثالث ومندوبيه وقد سمعته بأذنى .

والان اخيرا وليس اخيرا جون كيلى تراك المندوبة الدائمة فى الامم المتحدة وهى أساتذة من جامعة جورج ثاون وهنالك روبيل ماكر الاستاذ فى جامعة جونز هوبلى والذى دعا صراحة فى مقال شهير فى مجلة انتركوننتلي التي يرأسها لاحتلال آبار النفط فى الخليج وشمال افريقيا حينما كانت تصريحات كيسنجر ووزير الطاقة شليزنجرو والرئيس الامريكى فورد تتعالى دون انقطاع خلال عامى ٧٣ ، ١٩٧٤ وقام

كيسنجر بتأسيس وكالة الطاقة الدولية لمحاربة الاوبك والقضاء عليها والغريب أيها الاخوة والاخوات انه منذ عام ١٩٧٩ كان من المعرف استنادا الى حسابات الكمبيوتر الدقيقة أنه من الثمانين فيما بعد سوف تغرق الاسواق النفطية العالمية بالنفط ، ترى من أغرقها من قضى على المؤسسة الوحيدة فى العالم الثالث التى شكلت بوقفتها ضد الكارتل النفطى وفرضها السعر الذى تريد كمادتها الخام الاولى ولاول مرة فى تاريخ علاقات العالم الثالث بالعالم الاول يشكو علماء كبار مرددين .

أولا : نريد انقاذ حضارة الغرب ، هذه الحضارة التى أنعمت علينا نعما نرى اثارها الان فى لبنان والاردن وسوريا .... الخ .

ثانيا : نريد وقف التغلغل الشيوعى فى أوربا الغربية ، لعمرى كم ذهل قادة الغرب عندما سمعوا مثل هذه التصريحات كأكبر القائلين بهـا .

ثالثا : نريد وقف التضخم فى أمريكا والغرب .

ومن هؤلاء القادة العلماء مورجان تورو أحد كبار علماء القانون الدولى فى امريكا وهو من المدرسة التى تعتقد أن شعوب العالم الثالث تنتسب جميعا الى منظومة حضارية ادنى بكثير يجب ان ينظر اليها باعتبارها مجرد كتل من الناس تشكل كما سلبيا على هامش التاريخ وتقف عقبة أمام تقدم حضارة ومدنية الغرب ، وجابريس على جديته ومع أنه لا صهيونى ولا يهودى سجلت له أقوالا لا تقل عنها .

وينظر مورجان الى العلاقات بين الامم باعتبارها علاقات قوة فقط ترجع أساسا الى الفجوة التكنولوجية بين القوى الاستعمارية والقوة المستعمرة ويقدم استعمار بريطانيا للهند كمثال على ذلك ويقول ان هذه العلاقات دمرتها البلدان العربية المنتجة للنفط وان العديد من تلك البلدان لا يمكن اعتبارها دولا الا من قبيل المجاملة اللفظية اذ ان النفط هو الذى حول فجأة تلك البقعة الموجودة على الخارطة الجغرافية فى صحارى نائية والتى نسميها دولا الى عوامل هامة وقضية فى السياسة الدولية يجب ان نعيدها الى مكانها .

والغريب ـ أيها الاخوة والاخوات ـ أن هذه المحاضرة القيت فى حلقة تبنتها الـ I. T. T. (شركة التترات الدولية) وقدم لهـا

رئيسها واسمه جنين واذا قلنا I. T. T. فانها تملك بين ما تملك سلسلة فنادق الشيراتون المرصعة على كل شاطىء من شواطىء الخليج العربى فنحن نتعامل معها وهذا ما تقوله عنا .

١٣ ـ المنظور الاقتصادى للاستعمار الجديد :

ننتقل الان الى الناحية الثانية من نواحى عمل الاستعمار الجديد. بعد أن استعرضنا الناحية الاولى (السياسة) ونقصد بها الناحية الاقتصادية وبالطبع لا نستطيع فى هذا الحديث العاجل أن نقوم بمراجعة شاملة وعميقة للعلاقات الاقتصادية غير المتكافئة من العالمين الاول والثالث وانما اركز فقط على عدد من القضايا أوجزها فيما يلي :

أولا : التسابق على الموارد والسيطرة على المواد الخام : امريكا والغرب هما اللذان مازالا حتى الان لهما هذه السيطرة فسكان أمريكا الشمالية مثلا وهم وحدهم يبلغون ٦٪ من مجموع سكان العالم يستهلكون ٤٠ ٪ من مجموع ما ينتجه العالم والاعتماد الكلى هو على بلدان العالم الثالث من أجل تأمين هذه الموارد .

ومن الناحية الاخرى فان أسواق العالم الثالث تستهلك ٣٠٪ من مجموع صادرات أمريكا وكان مجموع الاستثمارات الامريكية فى بلدان العالم الثالث عام ١٩٧٠ ما مقداره ١٢٥ مليار دولار ـ وهى تزيد بنسبة ١٠٪ فى السنة فأسعار المواد الاولى تنخفض باستمرار واسعار المستوردات الصناعية ترتفع باستمرار بحيث تصبح الحياة مستحيلة فى بلدان العالم الثالث التى تعيش على تصدير المواد الخام والمواد الاولية .

ثانيا : ان المساعدا تالتى تعطى للعالم الثالث تستفيد منها بالدرجة الاولى الدول المعطية وعلى جميع المستويات من مستوى المدينة الى البلدة الى القرية والجامعة والمدرسة فالعمال فى المصنع .

ثالثا : فى عام ١٩٧٤ أعطت أمريكا لبلدان العالم الثالث مساعدات مقدارها ثلاثة مليارات ومائة مليون دولار استعادتها بشكل عقول مهاجرة أفادت أمريكا بستة مليارات وثمانمائة مليون دولار .

رابعا : رهن اقتصاد العالم الثالث بأكمله والدليل على ذلك هو مديونية العالم الثالث للمصاريف الخاصة الامريكية فقد كانت المديونية

عـام ١٩٧٠ ـ ٥٥ مليـار دولار وظل هذا المبلغ يتصاعد حتى بلغ ٤٠٠ مليار دولار عام ١٩٨٠ ـ نصف هذا المبلغ لمصاريف خاصة ولثلثها قروض لمصاريف أمريكية . البرازيل ٨٠ مليار ، المكسيك ٧٠ مليار ـ الارجنتين ٣٠ مليـار ـ فنزويلا المنتجـة للنفط ٢٦ مليار .. الخ .

وفى الاجتماع السنوى للبنك الدولي بواشنطن ـ وقـد حضرتـه بنفسى شيء لا يصدق انه أشـبه ما يكون بسوق عكاظ فالصـيارف الخاصون يتسابقون ويتهافتون على دعـوة ممثلى بلدان العالم الثالث ، كنت أو كان الواحـد منا يتلقى فى النهار الواحـد أربع أو خمس دعوات لغداء واحد او عشاء واحد أصحاب هذه المصارف يريدون ان يدخلوا القروض من مصارفهم فى انوف العالم الثالث ثم هاهم الان يأتون بالشكوى.

خامسا : القروض لا تعطى لاهداف اقتصادية انما لاغراض سياسية ماكنمارا حاكم البنك الدولى حتى السنة الماضية يبكى ويتباكى على آلام شـعوب العـالم الثالث وفقرها وجوعها وتصريحاته فى هذا الموضوع سمعتها بنفسى واكثر من ان تحصى ولنأخذ شيلى كحالة دراسة ننظر الى هذه المنطقة الان دييه حكـم سنتين ومن قبله فيريه ومن بعـده مولنش ، نجد أن الارقـام كانت كالتالى أعطت امريكا لفيريه فى الفترة من عام ١٩٦٨ الى عام ١٩٧٠ ٣٥٤ مليون دولار واعطت ١٠ مؤسسات امريكية لالان دييه ٧٨ مليون دولار منها ٣٣ مليون دولار للمؤسسـة العسكرية التى تقوم بالانقـلاب فى البلاد أما موانش فقد اعطته مختلف المؤسسات الامريكية ٨٧٩ مليون دولار غير أن البنك الدولى برئاسـة ماكنمارا لم يعط شـيئا واسـتجوبه أحـد أعضاء الكونجرس الامريكى كيف تم ذلك ؟ كل ما هناك هو ان أشـير الى ان اقتصاد موانش لم يكن أقوى من اقتصاد الان دييه وبالطبع لم يستطع ماكنمارا ان يجيب .

١٤ ـ قضية الجوع فى العالم الثالث :

واخيرا ماذا عن الجوع فى العالم الثالث؟ ان تقديرات ماكنمارا والبنك الدولى مفادها انه من الان وحتى نهاية القرن سيظل فى العـالم الثالث ٦٠٠ مليون جائع مـع ارتفاع عدد سكانه من ٢ مليار الى ٣ مليـارات فى نهاية القرن ، لكن قضية الجوع لكم كنت أتمنى ان تكون وحـدهـا موضوعا لمحاضرة لمـا يحيط بها ن ضباب وغيوم وخرافات ومن هـذه الخرافات عندما نردد عبارات مثل العالم الفقير والعالم الجائع فتقودنا الى تصور جماهير جائعة بشكل متميز ، انها تخص واقع مجتمعـات

طبقية فى البلاد المتخلفة والبلاد المصنعة كالولايات المتحدة على حد سواء الفقر والجوع يصيبان الشراع السفلى فى كليهما .

ان عبارات مثل العالم الجائع تميل الجوع او تحوله الى مكان وهو عادة بمكان قصى بعيد عنه وهكذا بدلا من أن يكون الجوع عملية اجتماعية يصبح كيانا جامط .

ان احكام السيطرة على مواردنا الغذائية خاصة فى العالم الثالث المتجمد فى المخزون التموينى الكبير يمكن التأكد منه بقياس درجة السيطرة الاحتكارية على التجارة الدولية فى بعض السلع الاساسية ، ان مجرد شركات كبرى متعددة الجنسية تسيطر على ٩٠٪ من اجمالى الحبوب التى تشحن عبر حدود العالم وتشترى من امكنة رخيصة كالفلبين وغيرها ان هذه الشركات الزراعية المتعددة الجنسية منهمكة الان فى خلق مزرعة كونية تشكل وتزود سوبر ماركت كونى كبير وفى هذا المخزن الكونى الكبير يدلل على الغذاء بالمزاد المعلن يدفع الكثير اينما كان يعيش والحقيقة المأسوية انه عندما تكون السيادة فى الغذاء للسوق نجد ــ وسوف نجد بل نحن نجده ــ ان حتى ٦٥ مليون كلب وقط المدللين فى امريكا يزايدون فعلا على الناس الجائعين فى العالم وتحت شعار الاعتماد المتبادل الذى أطلقته أوروبا الغربية وامريكا يقف مفكرو ومثقفو العالم ومن منطلق الاعتماد المتبادل للغذاء تقوم شركات الاتجار الزراعى متعددة الجنسيات ــ كما فعلت تماما شركات النفط العالمية من قبل ــ بخلق نظام وراعي كونى جديد تمارس فيه السيطرة المتكاملة على جميع مراحل الانتاج من المزرعة الى المستهلك ، ان المزرعة الكونية والمخزن الكونى الكبير اعتمادا منها على تشجيع المكلفين فى العالم الاول وارتباطاته العسكرية والدبلوماسية يقومون بانشاء نمط من الاعتماد المتبادل لنا به ولكن لا احد يحتاج اليه فالاعتماد المتبادل ــ هذا الاتجاه الجديد وهذه البنية الفكرية الجديدة الذى قذف به العالم الاول لمراوغى السياسة الدولية فى العالم الثالث فى عالم تستشرى فيه لا مساواة القوة ليس فى الحقيقة سوى ستار دخان يحجب الاستبداد بالمواد الغذائية بل الاستبداد بكل المواد من كتلة الى كتلة .

١٥ ــ الغزو الثقافى :

أما عن الفرض الثالث فهو الغزو الثقافى ولكنى اعترف بأننى تجاوزته فاذا كان الاخوة والاخوات يسمحون فسأعرض فقط لناحية واحدة انا حريص عليها . ففى الغزو الثالث نردد ــ وحتى زعماؤنا

والمخلصون منا ـ احيانا ترديدا بغبغائيا ما يريدنا الغرب واعلامه وامريكا واعلامها والصهيونية واعلامها فى نفس الوقت مثلا عندما نريد ان نقول القول الاخير فى مذابح صبرا وشاتيلا (لقد فعلوا كما فعل النازى المجرم فى اليهود) وعندما يريد خطباؤنا فى مجلس الامن والجمعية العامة ان يقذفوا بالقنبلة الكبيرة يقولون ايضا مثل هذا القول «الصهيونية واسرائيل يفعلون كما فعلت المانيا الغربية » ولا انكركم بأننى فى بدء حياتى وقعت فى هذا الخطأ وفى عام ١٩٦٧ جئت لجولدنبرج وأبا ايبان فى مجلس الامن بكتاب كان قد ظهر فى السوق الادبية الامريكية لكاتب صهيونى اسمه بن هيك واسم الكتاب مترجما للعربية « الخيانة » لكن ماذا كانت تعني الخيانة ؟ تتلخص في ان اليهود اقصد زعماءهم قد تعاونوا فى مجلس الامن تعاونا وثيقا مع اياخمان من اجل ان يمدوا الجيش الالمانى بتراكتورات عن طريق الحلفاء كان الجيش الالمانى فى حاجة اليها وقد قامت قيامة بن هيك على هؤلاء الزعماء الصهاينة وذكر موشيه شادر وبن جوريون بالذات حيث اجتمعا بممثل لأياخمان فى مدينة حلب فى سوريا وحملوا على الصهيونية واسرائيل وزعمائها حملة شعواء ، وفى اليوم التالى هجمت جماعة الحفاوى كهاو التى ما زالت معروفة حتى الان على مقر السفارة السورية وكان هنالك شرطيان وهاجمها خمسة وعشرون يهوديا غربيا حيث دخلوا السفارة واخرجوا منها أوراقا ومزقوا وثائق ورموها على الارض كل ذلك لنفهم فعلا انهم لا يقبلون ان نعرف ما يعرفون .

اعود الى ما كنت اقول ، هل فعلا قتلت المانيا وقتل هتلر ستة ملايين يهودى ؟ الجواب ينطق به كتاب « اكذوبة التاريخ » لاستاذ علوم بجامعة نورت وستن حيث يقول فيه بشكل علمى دقيق ان هتلر ما كان ليمكن ابدا ان يقتل هذا العدد وان هذه الافران التى يتحدثون عنها كانت لتعقيم الاموات او المرضى من الذين يموتون بمرض ما .

وقبل ذلك بكثير ظهر فى فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية تماما كاتب اسمه بول راسنييه وكان ضمن المقاومة الفرنسية وانتخب عضوا فى المجلس الوطنى الفرنسى وبقى فيه سنتين نشر خلالها ثلاثة كتب يظهر فى كل منها وهو الذى اعتقل فى معتقل ـ واشاد بالذات الى انه لم تكن هنالك اية افران على الاطلاق وان هذه القصة كلها محض خيال واختراع من الخيال الصهيونى فداب الصهاينة على محاربته ولم تمض عليه سنتان الا ومات فى ظروف ما ، وهذا الكتاب لو لم اتصل انا

شخصيا بالكاتب واجتمع بـه لما استطعت الحصول عليه لان ايا مـن هذه الكتب لا يمكن ان تجدها فى اية مكتبة فى امريكا او فى اوربـا .

والكاتب الثالث وهو حى الان واسمه روبرت فورسو وهو ايضا **أستاذ كبير فى جامعة ليون وكتب كتابين او ثلاثة كتب فى دحض هـذه** الاكذوبة التى نسميها بأكذوبة القرن العشرين وهذا مثال واحد فقط ـ ايها الاخوة والاخوات ـ لاقول كيف اننا نردد على غير وعي منا ما يريده **الاعلام الصهيونى أي ما يريده الاستعمار الجديد وهذا مثال بارز عليه ،** وقد عاشت الصهيونية منذ عام ١٩٤٥ وحتى اليوم على هذه الاكذوبة الرخيصة وما زالت تعيش حتى الان ، والمؤلم كما قلت اننا نحن ننساق فى ركاب هذه الدعاية دون ان ننتبـه اليهـا .

١٦ ـ أزمـة التخلف العربـى :

وهى الشق الثالث واعتقد انه لا بد مـن الاستغناء عنه فهـذه مواضيع فى الواقع يمكن ان يكتب فيها اكثر من مجلد لكننى سأشير فقط الى الارقام من خلال النقاط التاليـة :

أ ـ الاميـة : وقد بلغت عندنا عـام ١٩٨٢ ، (٢٨) مليون لفئـة العمر من ١٥ الى ٤٥ سنة اي ما يعادل ٤٢٪ من سكان العالم العربى ، **واكبر نسبة فى العالم المتقدم لا تتعدى ٢٪ وحسب تقديرات الخبـراء** نحتاج الى ما يتراوح ما بين ٦٠ سنة ـ ٧٠ سنة **لمحوهـا** .

ب ـ الامن الغذائى : نستورد الان ما قيمته ١٨ مليار دولار مواد غذائية اذا استمر معدل التضخم فى الارتفاع ويقول **الخبراء** اذا عـاود النفط سعره بالارتفاع فسيكون ما نستورده من **المواد الغذائية** فى نهاية القرن مقداره مائة مليار دولار هذا بالرغم من وجود زراعة عندنا مثـل السودان والمغرب (**المغرب الافريقي الذي كان**) وسوريا والعراق .. الخ

جـ ـ عـدم استثمار اراضينا الزراعية التي توجد بوفرة فـي السودان مثـلا .

د ـ بيننا من يناقش ويقول بأنه لا جدوى من استثمار الامـوال العربية فى البلاد العربية فى ظل الاوضاع القائمة لكن السؤال ـ قد يكون ساذجا وهو لماذا لا يمكن تغيير هذه الاوضاع وبناء جسور للثقة بـين الشعوب العربية ذاتها الا يمكن ان يتحول النفع من القلة المتخمة الـى الاكثرية الجائعة وان يكون تعاملا بين شعوب وشعوب .

هـ ـ النسبة الضئيلة مما نصنعه من النفط تكريرا ونقلا ما زالت لا تتجاوز ٧½٪ على الاكثر سواء فى الصناعة او النقل ، وشركات النفط العالمية ما زالت حتى الان تحقق اعظم الارباح وبرميل النفط الذى تأخذه منا بسعر ٣٠ او ٢٨ دولار تبيعه مصنعا بسعر مضاعف عشرات المرات .

١٧ ـ نحن واسرائيل :

اعترض البعض على استعمال الدكتور فؤاد زكريا كلمة ((الفناء)) بمعنى أن حربنا أو مجابهتنا مع اسرائيل هي مصارعة بقاء او فناء ، وفى الحقيقة اننى ابحث عما هو اسوأ من هذه الكلمة ان وجدت ، فعندما نضع ١٥٠ مليون عربى فى مقابل ٣ ملايين صهيونى وهم المتغلبون ـ انا لا اعرف ماذا يمكن ان اقوله ؟

الخلاصـــة

أيها الاخوة والاخوات ان رؤى النظـــام العالمي العقلاني رافقت ادمغة كبار معلمى الانسانية منذ مطلع العصور الحديثة وتأرجحت بـين المثالية والواقعية عقلانيا لا مندوحة لنا من العيش مع الاخرين ، قـال صالت فى احدى مسرحياته (جهنم هى الاخرين) لكننا لا نريد ان نقول ذلك ، فاذا لا مندوحة لنا من العيش مع الاخرين الا ان ما نعيشه فـى العالم العربى وبعد احداث لبنان وصبرا وشاتيلا والضفة والتسليم لا يترك مجالا للشك فى اننا على الاقل فى عالم مريض ، محاولات العالـم الثالث ـ ونحن فيه ـ باءت بالفشل ، النظام الاقتصادى الجديد الذى اعلن فى عام ١٩٧٤ سبقه اعلان النظام الجديد فى ميثاق الامم المتحـدة بالذات لكن لنتساءل ماذا اصبحت الامم المتحدة ؟؟ .

لقد اصبحت افيونا لتخدير الشعوب الذين ينتسبون اليها ، واما النظام الاقتصادى الجديد فقد استطاعت امريكا والغرب ان يمتصوه كما ان الحوار العربى الاوروبى رمى الغرب بموجبه بعضا مـن فضلات فكرة تركتنا وراءه والاعتماد المتبادل غدا طعما فى سنارة لتصطاد مـن يستطيع أن يردد الشعارات دون ان يفهمها او يقيم مضمونها ، صبرا وشاتيلا ومكافأة اسرائيل بمبلغ ٥٠٠ مليون دولار بعد ارتكابها حـرب لبنان ومجازر صبرا وشاتيلا يجب الا تدع لنا مجالا لاى شك فى اي عالم نعيش .

الحلول السياسية لا يمكن ان تكفى ، الهوى المسيطر على الانسان العربى والقوة الدافعة له هى ان يعيش المرء لنفسه وللساعة التاليـة ، اما الوعى التاريخى وتعاقب الاجيال فيمحى ويتلاشى وتأتى مكانها ثقافة نرجسية فالاعلام اصبح سلعة والتعليم والتثقيف كذلك ، نحن بحاجة

الى قفزة نوعية فكيف تأتى ؟ ان لـم تحركنا مأساة فلسطين ومأسـاة القدس فما الذى يحركنـا ؟

واخيرا فان السؤال المطروح هو هل يمكن التعايش مع الاستعمار الجديد ؟ وهذا السؤال مرادف للقول هل يمكن التعايش مع اسرائيـل حيث الاستعمار الجديد فى بلادنـا ، وبالنسبة لنا هل يمكـن التعايش مع الصهيونية ؟ هل تقبل الصهيونية ان تتعايش مع انسان عربى وكيان عربى يحترم ذاته وبعد صبرا وشاتيلا وبعد التسليم وبعد التخطيـط لتوطـين مليون يهودي ونصف فى الضفة الغربية فى ربع القرن المقبـل ، على كل عربى ان يجيب بنفسه على نفسه على هذا السؤال .

والسـلام عليكـم ،،،

الولايات المتحدة الأمريكية والصراع العربي الصهيوني

توفيق أبو بكر

الولايات المتحدة الامريكية
والصراع العربى الصهيونى

ربما كان من الامور الصعبة جدا ان اتمكن من معالجة موضوع كبير كهذا فى محاضرة واحدة . فرغم ان الموضوع يبدو بسيطاومفهوما للانسان العربي العادي الذي يلمس يوميا انحياز امريكا الفاضح فى كل ما يتصل بقضايا الصراع العربى الصهيونى ، الا فان الموضوع يخفى تعقيدا وتعرجات عديدة وراء نتائجه البسيطة الواضحة وذلك على امتداد ستين عاما وكانت امريكا خلالها اكثر دول العالم انغراسا وتورطا فى قضايا الصراع العربى الصهيونى .

فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، حيث برزت امريكا زعيمة للقوى الامبريالية فى العالم بدات الصهيونية العالمية تنقل نقلها وتحالفاتها صوب القائد الجديد وبدات تخفف من ارتباطاتها ببريطانيا وخاصة بعد الكتاب الابيض لعام ١٩٣٩ الذى اضطرت له بريطانيا كموقف متوازن بين العرب واليهود .

ولعل اهداف الزعامة الامريكية للامبريالية العالمية . قد عبرعنها بوضوح فيرجيل جوردان رئيس مجلس المؤتمر الصناعى حيث قال : وقبل ان تضع الحرب اوزارها . « مهما كانت النتيجة التى ستؤول اليها الحرب الحالية فقد اندفعت الولايات المتحدة فى اتجاه استعمارى فى الشئون العالمية وفى كل مظهر من مظاهر حياتها السياسية وفى احسن الاحوال ستصبح انجلترا شريكا ثانويا فى استعمار انجلو سكسونى جديد . تكون فيه موارد الولايات المتحدة الاقتصادية وقوتها العسكرية والبحرية مركز الثقل . ويستطرد جوردان قائلا : « اننا نخشى كلمة الاستعمار البغيضة . وكثير منا يؤثرون ان يخفوها على الطريقة الامريكية الشائعة وراء حجاب من العبارات الغامضة مثل الدفاع عن نصف الكرة الغربي ولكن امريكا مقدرة لها ان تسلك هذا السبيل بحكم طبيعتها وقوتها ومواردها ومصالحها .

انطلاقا من ذلك احتضنت امريكا الحركة الصهيونية منذ وقت مبكر ولكن التحالف الاكثر وضوحا بدأ عشية انجلاء الامور بعد الحرب العالمية الثانية . ودون عودة لتفاصيل تاريخية بات يعرفها كل مواطن عربى ويدرسها كجزء من التاريخ العربى المعاصر ، فقد وقفت امريكا مع كل مطالب الحركة الصهيونية فى الفترة القصيرة والحاسمة التى سبقت ميلاد الكيان الصهيونى على ارض فلسطين . حين استلم الرئيس ترومان سدة الرئاسة دشن عهده برسالة حادة للمستر اتل رئيس وزراء بريطانيا يحثه فيها على الغاء الكتاب الابيض البريطانى نهائيا ، وهو الكتاب الذى كان مقررا بموجبه وقف الهجرة اليهودية الى فلسطين بعد خمس سنوات يسمح خلالها بهجرة ٧٥ الف يودي الى بلادنا . ثم وقفت امريكا ضد كل لجان التحقيق التى حاولت البحث عن حل متوازن فى فلسطين . وقفت مع التقسيم فى الجمعية العامة للامم المتحدة عام ١٩٤٧ ، وبالترغيب وبالترهيب معا دفعت دولا عديدة للتصويت لصالح التقسيم . وحين اعلنت دولة اسرائيل فى اواسط مايو عام ١٩٤٨ ، كانت امريكا اول دولة في العالم تعترف بها .

يقول ابا ايبان فى انها اعترفت بها بعد قيامها بخمس دقائق . يذكر والتر ايتان فى كتابه « السنوات العشر الاولى » ان الرئيس ترومان اعلن صباح ١٤ مايو انه على استعداد للاعتراف حالا باسرائيل ، اذا تسلم طلبا بذلك . فتلقف الياهو ايلات الذى كان حتى ذلك الوقت ممثلا للوكالة اليهودية فى واشنطن هذا التلميح ، وبدون انتظار تعليمات ارسل كتابا الى الرئيس ترومان ووزير الخارجية يقول فيه :

« اعلنت دولة اسرائيل كجمهورية مستقلة ضمن الحدود التى رسمتها الجمعية العامة للامم المتحدة واخذت الحكومة المؤقته على عاتقها ممارسة حقوق وواجبات حكومة لاقرار القانون والنظام ، وانى مخول من قبل الحكومة المؤقته أن اقدم هذه الرسالة » .

بعد ١١ دقيقة اعلن البيت الابيض : لقد اعلنت هذه الحكومة أن دولة يهودية قد اعلنت فى فلسطين وان طلبا بالاعتراف قدم اليها من قبل الحكومة المؤقتة بناء على ذلك فان الولايات المتحدة تعترف بسلطة الحكومة المؤقتة لدولة اسرائيل كأمر واقع » .

فى الفترة الممتدة منذ قيام اسرائيل وحتى حرب السويس اتسم الموقف الامريكى ازاء الصراع العربى الصهيونى ، وازاء المنطقة بشكل عام بالسمات التالية :

أولا : كانت أمريكا قد بدأت سياسة عرفت بسياسة الحصر ، وهى سياسة قائمة على حصر الاتحاد السوفيتى واحاطته بحزام من الاحلاف العسكرية يقول محمد حسنين هيكل فى سلسلة مقالات حول الفارس الرابع على طريق السويس وحكايته المعقدة ، انه حين ذهب لامريكا لتغطية حملة الانتخابات بين ايزنهاور « الجمهورى » وستيفنسون الديمقراطى التقى بالجنرال اولمستد رئيس برامج المساعدة العسكرية فى البنتاغون ، وفى المقابلة اظهر الجنرال خريطة كبيرة للعالم مغطاة بالدبابيس الملونة والاعلام التى تشير الى مواقع القواعد الامريكية فى العالم ثم قال لهيكل .. أن منطقة الشرق الاوسط خالية من هذه الدبابيس ونريد مدها .

فى هذا الاطار بدأت امريكا سياسة الدعوة للاحلاف العسكرية فى المنطقة . ونظرت لاسرائيل بأن لها دورا فى الشرق الاوسط فى نطاق حماية المصالح الامريكية ومحاربة الشيوعية ، ومحاربة الحركةالوطنية الغربية .

تقول هآرتس (١٩٥١/٩/٣٠) نقلا عن احد الاستراتيجيين الغربيين عن دور اسرائيل فى الشرق الاوسط : (ان تقوية اسرائيل يساعد الدول .. الغربية على المحافظة على التوازن والاستقرار فى الشرق الاوسط وان على اسرائيل أن تلعب دور كلب الحراسة وليس هناك خوف من ان تمارس اسرائيل سياسة عدوانية تجاه الدول العربية ، وفى الوقت المناسب فلأى سبب كان ، ان قفلت الدول الغربية ان تغلق عيونها فبالامكان الاعتماد على اسرائيل للقيام بمعاقبة واحدة من الدول المجاورة التى تجاوزت تصرفاتها تجاه الغرب ، حدود اللياقة المسموح بها . هكذا نظر الاستراتجيون الغربيون منذ وقت مبكر لدور اسرائيل فى حراسة المصالح الغربية ، ولكنها كانت فى ذلك الوقت دولة ناشئة ، لم يجر اختبارها بعد لذلك عجلت أمريكا ــ اولا وقبل كل شىء ــ على اصدار البيان الثلاثى الشهير الذى وقعته امريكا وبريطانيا وفرنسا فى مطلع الخمسينات لحماية حدود الدول فى الشرق الاوسط ، بما يعنى بالاساس حماية اسرائيل ضمن حدودها القائمة انذاك وكان ذلك اول التزام غربى صريح بالحفاظ على اسرائيل .

فى نفس الوقت ، عملت امريكا على السير فى سياسة اقامة الاحلاف العسكرية فى المنطقة ، وتحركت بشكل محدود للبحث عن حل بما عرف انذاك بمشكلة اللاجئين الفلسطينيين يقوم على التوطين

« مشروع جونستون » واعادة جزء قليل منهم الى اوطانهم فى حدود قدرة اسرائيل لاستيعابه اقتصاديا وسكانيا . ولكن ايا من تلك المشاريع لم ير النور .. لان اسرائيل عارضته ورفضه الفلسطينيون والعرب انذاك .

حرب السويس عام ١٩٥٦ ، كانت احدى محطات الانعطاف فى علاقة امريكا بالمنطقة العربية ، وبقضايا الصراع العربى الصهيونى مازال كثيرون فى بلادنا بحسن نية او عن سابق اصرار ـ يسيئون فهم ما حدث من موقف امريكى انذاك لادانة العدوان الثلاثى ، ولاجباراسرائيل فيما بعد على الانسحاب من سيناء وقطاع غزة ، ويعتبرون ما حدث نموذجا لموقف امريكى يحلمون ان يتكرر فى الضغط على اسرائيل للانسحاب من الاراضى العربية المحتلة .

لقد اعتبرت امريكا العدوان نهاية للوجود البريطانى الفرنسى فى المنطقة العربية يجب التحرك على الفور لوراثته ، بأساليب جديدة وعقلية مختلفة وذلك لا يتحقق بالطبع عبر تأييد العدوان .

الامريكية قالت فى عدد ، فبراير ١٩٥٧ « ان الغزو البريطانى الفرنسي لمصر قد حطم البناء المتصدع الذي كانت تلعب فيه بريطانيا وفرنسا دور حراس الامن والنظام فى الشرق الاوسط . وقد القى على كاهل الولايات المتحدة ارجاع حكم القانون والنظام الى هذه المنطقة .

ـ امريكا اذن تريد استثمار خروج بريطانيا وفرنسا قبل ان يستثمر السوفيات موقفهم المساند للعرب فى حرب السويس حين رفض بن غوريون الانسحاب من سيناء وغزة هدد ايزنهاور بفرض عقوبات على اسرائيل فى الامم المتحدة وطلب بحث الموضوع لكن ضجة كبيرة حدثت فى الكونغرس عندما ابلغ ايزنهاور زعماء الكونغرس ضرورة خضوع اسرائيل للانسحاب والا فان العرب سيرتمون فى احضان الاتحاد السوفيتى .

وقد كان الكاتب محمد حسنين هيكل عميقا فى تشخيصه لموقف امريكا انذاك فى سلسلة مقالات نشرها قبل سنوات تحت عنوان كل الطرق تؤدى الى السويس قال هيكل :

« وان امريكا كانت الشريك الرابع فى حرب السويس فقد سارت شوطا على طريق السويس ثم تخلت عنه الى طرق اخرى ظنتها اسرع

نفاذا . وهكذا اختلفت مع بقية الشركاء فى الوسائل وليس فى الاهداف النهائية . وبلغ خلافها مع بقية الشركاء ذروته حين وجدت ان تصميم الاخرين على اتخاذ طريق السويس يشكل تهديدا لسيطرتها على المعسكر الغربى كل الذى لا يحق له ان يتصرف بغير اذنها لانه لايستطيع مواجهة العواقب بغير حمايتها ومن ناحية اخرى فان طريق السويس بملابساته ومضاعفاته كاد ان يفاجىء المسافرين عليه باحتمالات مواجهة مع الاتحاد السوفيتى فى وقت حكمته استراتيجية الردع النووى الشامل . ولم تكن نظريات الرد المرن بالاسلحة غير النووية قد ظهرت بعد . ولا كانت اسلحتها متوفرة . ولعل السويس كانت نقطة البداية فى هذه النظريات عن الرد المرن ، وذلك رأى الجنرال ماكسويل تايلور رئيس هيئة أركان حرب الجيش الأمريكى والداعية الاكبر لهذه النظريات

واوضحت امريكا عن اهدافها من المواقف التى اتخذتها من حرب السويس حين طرحت مشروع ايزنهاور لملء الفراغ فى الشرق الاوسط بعد الحرب مباشرة وهو مشروع استعمارى استهدف يومها دخول امريكا الشرق الاوسط مباشرة بعد عجز الدول الاستعمارية القديمة عن حماية المصالح الامريكية بعد اشتداد ساعد الحركة الوطنية العربية. وهو محاولة لاقامة نظام اقليمى فى خدمة امريكا ولمقاومة الاتحاد السوفيتى . كما انه يخول الرئيس سلطة استخدام الوسائل الاقتصادية والعسكرية والدفاعية ووضع المبالغ اللازمة لتنفيذ ذلك دون قيود .

لقد فشل ذلك المشروع كما تعرفون جميعا فشلا ذريعا وحاول الرئيس كنيدى أن يعدل من السياسة الامريكية فى الشرق الاوسط على ضوء فشل سياسة ايزنهاور المتمثلة بمشروع ذى النقاط الاربع لاخضاع المنطقة للنفوذ الامريكى وقال كنيدى فى كتابه استراتيجية السلام .

« ان الموقف فى الشرق الاوسط لم يتحسن التصريح الدرامى لنظرية ايزنهاور التى عالجت الموقف فى الشرق الاوسط على انه مقاطعة امريكية يدافع فيها ضد اعتداء خارجى ، واغفلت الثورة العربية القومية الثائرة علينا ان نتكلم بلهجة مخالفة للهجة الحرب الباردة . لقد اخطأنا حين اعتقدنا ان الشيوعية هى العدو الاكبر للعرب ، فاذا كانت بالنسبة لنا كذلك ، فهى ليست كذلك بالنسبة لشعوب تؤمن بالحياد ولها تاريخ طويل في مقاومة الاستعمار الاجنبي .

وعلى قاعدة هذه السياسة فى الاحتواء بعيدا عن الصدام المباشر. تحرك كنيدى فى بداية عهده ـ عبر مراسلاته الشهيرة للرئيس عبدالناصر للبحث عن وسائل لتنفيذ توصيات الجمعية العامة ولجنة التوفيق المنبثقة عنها بشأن اللاجئين الفلسطينيين ولكن ذلك لم يسفر عن شيء اذ بدا أن هناك مسافة كبيرة بين ما يطرحه كنيدى وبين الحد الادنى المقبول عربيا وبالتحديد ناصريا فى تلك الفترة .

« حرب حزيران » لم تكن كالسويس محطة انعطاف جديدة فى علاقة امريكا بالصراع العربي الصهيوني وقضايا المنطقة ، بل كانت بداية مرحلة جديدة كليا وبسمات واهداف جديدة تماما .

فقد اثبت واحد من حلفاء أمريكا قدرة فائقة على التصرف وجني الثمار وخاصة فى وقت ابتدأت فيه الولايات المتحدة تفكر على ضوء تورطها فى فيتنام بأصدقاء من هذا النوع .

يقول ناطق بلسان الخارجية الاسرائيلية ان الولايات المتحدة توصلت الى الاستفتاء أنه ليس فى وسعها الان الاستجابة لكل حادثة في أنحاء العالم وان عليها تبعا لذلك الاعتماد على قوة محلية ، صديقة كخط أول وذلك لتجنب التورط الامريكي المباشر ، وان اسرائيل تشعر أنها ملائمة لهذا الموقف .

ـ وأمام نجاحات اسرائيل فى حرب حزيران ، فقد بدأت تطالب بدور الشريك الاصغر وليس التابع للولايات المتحدة . قال اشكول عشية نجاح نيكسون فى انتخابات عام ١٩٦٨ : اننا نرفض أن يرى الرئيس الجديد فى اسرائيل موضوعا يستحق العطف . أننا شريك اثبت أهلية مطلقة فى حماية مصالح الولايات المتحدة فى الشرق الاوسط .

وأثناء زيارة اشكول لامريكا عام ١٩٦٨ بعد الحرب ، كتب مراسل معاريف فى امريكا يقول : ان تجربة الامريكيين في فيتنام قد اقنعت ارباب السياسة الامريكية انه من الممكن النجاح فى مقاومة التغلغل السوفيتي اذا ما وجدت الولايات المتحدة شركاء هم أهل لمثل هذه السياسة . وقد اتضح لواشنطن على ضوء نتائج حرب حزيران انه ليس ثمة شريك فى الشرق الاوسط أكثر اخلاصا من اسرائيل لاداء هذه المهمة .

ـ وعلى ضوء نتائج حرب حزيران يبدو ان السياسة الامريكية قد تبنت لنفسها أربعة أهداف اساسية لاستثمار نتائج الحرب . وما زالت نفس الاهداف قائمة وهي : ـ

١ ـ تحويل الانتصار الاسرائيلي الى انتصار امريكي مما يترتب على ذلك من تغيرات اقتصادية وسياسية فى مجمل المنطقة العربية لصالح الولايات المتحدة واحتكاراتها ومصالحها .

٢ ـ الابقاء على احتلال الاراضى العربية لاحداث هذه التغيرات الطبقية والاقتصادية المطلوبة .

٣ ـ تهديم العلاقات العربية السوفيتية بشكل كامل ونهائى اذ يرى د. وليم قوانت ان بغض النظر عن تحديد خبراء السياسة الخارجية لموقف الولايات المتحدة من الشرق الاوسط ، فان وزن الوجود السوفيتي فى هذه المنطقة هو الذي يضغط دون شك على التخطيط الاستراتيجي الامريكي .

٤ ـ اسقاط كل الانظمة الوطنية المعادية بهذه الدرجة او تلك للمخططات الامريكية . يقول د. ابراهيم ابو لغد ان لجنة الكونغرس الخاصة بالسلام فى الشرق الاوسط قد توصلت الى ان السلام في الشرق الاوسط يواجه تهديدا حقيقيا من السياسات التقدمية التي تتبعها الجمهورية العربية المتحدة والتي يعتقد انها تعمل لالحاق الضرر بالمصالح الامريكية والبريطانية وتساعد على انتشار الشيوعية .

ـ مازالت هذه الاهداف قائمة ، وان كان قد تحقق منها جزء كبير وستبقى امريكا تناور سياسيا وتمارس كل ضغوطها لتحقيق كامل الاهداف السابقة قبل ان تصل الى حل لما يسمى بأزمة الشرق الاوسط التي ترتبت على حرب حزيران واحتلال الاراضى العربية . وقد كانت حركتها السياسية طوال الفترة تستهدف ذلك لكنها مرت بتفجرات عديدة واستجابت لتحديات مختلفة .

لم تتوقف امريكا عن الحركة السياسية طوال الوقت حتى لا تترك الساحة السياسية فارغة من المبادرات مما يدفع الى راديكالية المنطقة امام فقدان القدرة على جذب الانظار نحو حركة سياسية ما . يقول مايكل هدسون استاذ العلاقات الدولية « تريد الولايات المتحدة دائما اعطاء العرب انطباعا بأنها قد تتدخل وتفعل شيئا لمصلحتهم ، على حين انها

لا تفعل فى الواقع سوى اكتساب الوقت واعطاء اسرائيل الفرصة لتدعيم مركزها وتكريس وجودها على الارض العربية .

ويقول د. وليم قوانت فى كتابه « عقد من القرارات فى الشرق الاوسط ١٩٦٧ / ١٩٨٦ كلاما بنفس المعنى وهو ان امريكا تعطي العرب دائما انطباعا بتحركها نحو البحث عن حل ولكنها فى كثير من الحالات تتحرك للمناورة وابقاء الساحة مشغولة ... وانطلاقا من ذلك تحركت امريكا بعد حرب حزيران مباشرة موهمة العرب بانها تبحث عن حل ما : قدمت نقاط جونسون الخمس في ١٩ حزيران والتي مثلت انحيازا كاملا لمطالب اسرائيل تحركت ووافقت على محادثات الدول الاربع الكبرى تحت قبة الامم المتحدة للبحث عن حل ، ثم اعلنت رسميا توقف هذه المباحثات امام الطلبات السوفياتية غير المقبولة ، والتي كانت دائما الحد المتفق عليه من المطالب العربية .

وقبل احداث ايلول بدا لامريكا ان المنطقة تموج بالتطورات المعادية للسياسة الامريكية : اتساع الوجود الفدائي فى الاردن ميلاد الثورة الليبية التطورات الراديكالية فى السودان آنذاك فقررت التحرك لقطع الطريق على هذه التفاعلات وتقدمت بمشروع روجرز الأول غير أن أحداث أيلول فيما بعد والدور الاسرائيلى فى تهديد سوريا حين تدخلت لصالح الفدائيين رفع من جديد قيمة اسرائيل فى نظر الاستراتيجيين الامريكيين ، لانها اثبتت مرتين فى ثلاث سنوات انها حليف موثوق قادر على التصرف وقت الحاجة .

ثم ارتفعت قيمة اسرائيل مرة اخرى فى اعين الاستراتيجيين الامريكيين امام طرح مبدأ نيكسون كيسنجر الجديد والذي يعطى على ضوء تجربة فيتنام دورا اكبر للحلفاء فى الحفاظ على مصالح الولايات المتحدة بديلا عن التورط الامريكي المباشر المكلف على كل المستويات . ازدادت أهمية الدول الوكيلة ، أو الدول المنابة ، واثبتت اسرائيل انها الاقوى من بين كل الوكلاء فى العالم في اداء دورها الجديد .

يعتمد مبدأ نيكسون كيسنجر كما جرى التعبير عنه بوضوح فى رسالة للكونغرس عن الوضع العالمي وحالة الاتحاد حيث قال اننا مستعدون لتزويد حلفائنا بالمال والتكنولوجيا ليقوموا بدور رئيسى فى قمع المتمردين وتخفيف العبء . فى كل الحالات التي تنطوي على انماط عدوان غير نووية لحلفائنا وقيل ان هذه السياسة تستهدف تزويد الحلفاء بالخراطيم والمياه ، وتستهدف تغيير لون جثث القتل .

ـ اسرائيل اثبتت حتى حرب اكتوبر ـ انها متلائمة تماما مع هذا التوجه الامريكى الجديد .

اثناء زيارة مائير لامريكا أوائل عام ١٩٧٣ ، كتبت هآرتس (١٩٧٣/٣/٧) عن الاجتماعات الامريكية الاسرائيلية فقالت :

« لقد قلنا لهم كما قال تشرشل فى حينه لروزفلت . اعطونا الادوات ونحن نقوم بالمهمة لقد اوضحنا للامريكيين ان اسرائيل قوية وذات وسائل ردع لن تبعث باليأس فى نفوس العرب من الحلول العسكرية فقط بل ستحول دون تحول النزاع الى نزاع عالمي . لقد ادى صمودنا في حرب الاستنزاف الى خروج الروس من مصر خلافا لكل توقع . لقد بينا ان اسرائيل قوية هي ضامنة للمحافظة على المصالح الامريكية فى المنطقة ولقد اوضحنا ان الجيش الاسرائيلي بقوته المطلقة لا النسبية هو خط الدفاع الاول عن المصالح الامريكية فى حوض البحر المتوسط اكثر من معظم دول حلف الاطلسى وقد اثبتنا مصداقيتنا ـ نظريا وعمليا في اليوم الذي دخل فيه السوريون الاردن بالقوة .

حرب اكتوبر كنموذج للمبادرة العربية فى ادارة الصراع ـ وبنتائجها العسكرية الاولية المباشرة كادت ان تطيح بكل النظريات الاستراتيجية الامريكية عن اسرائيل كقوة اقليمية كبرى في المنطقة متفوقة وذات وسائل ردع تبعث اليأس فى نفس العرب . لكن التفريط بكل ايجابيات اكتوبر فيما بعد على يد الرئيس المصري ـ والفشل فى استثمارها واعتبارها بداية لتطوير مجابهة من طرف جديد ، انهى كلّ شيء وتفرغت اسرائيل وامريكا لاصلاح الخلل الذي ادى لنتائج غير متوقعة فى الايام الاولى للحرب .

وبغض النظر عن صحة المعلومات التي تقول ان امريكا كانت مع التسخين فقد رأى كيسنجر فى حرب اكتوبر فرصة لا تعوض لوضع نظرياته الفلسفية التاريخية الانمائية موضع التنفيذ لتكون أكتوبر وسيلة للسلام بالمفهوم الامريكي ووسيلة لتحقيق الاهداف الامريكية الاربعة التي تحددت عشية حرب حزيران .

« يقول هيكل ان كيسنجر ابلغه بأن النصف الاول من اكتوبر كان انسب وقت لوقف القتال ، لان كل طرف كان قد حقق جزءا مما يريد وليس كل ما يريد وهكذا تحرك كيسنجر لضرب الحديد وهو ساخن ،

حيث يستطيع ان يزن ما يستحقه كل طرف فى اللحظة القادمة بغض النظر عن العدل المطلق وعما كانت عليه الامور قبل عشرات السنين . يقول كيسنجر لبورشفريت فى النيوزويك بأنه لا يستطيع ان يعالج الازمات وهي باردة وهي سياسة كيسنجر بل لا بد لكي يعالجها ان تكون ساخنة حتى يستطيع ان يتبين ما يستحقه كل طرف فيها وهي سياسة كيسنجر التى سماها جيرار شاليان بسياسة خوض الحروب المحدودة لانزال خسائر متدرجة بالخصم تتواكب معها فترات هدوء غايتها الدخول فى اتصالات سياسية تكون فيها منظورات السلم المعروضة اكثر قبولا من الخسائر التي تزداد فداحة مرة بعد اخرى . سياسة المزج بين القوة الدبلوماسية . فاستخدام القوة دون الدبلوماسية يسبب تهورا وقت الانتصار ، وذعرا وقت المحن ، في حين ان الدبلوماسية التي لا ترتبط ارتباطا وثيقا باستخدام القوة هي دبلوماسية عقيمة لا تحقق شيئا .

على قاعدة هذه الافكار بدأ كيسنجر تحركه فى الشرق الاوسط حيث حقق نجاحا ساحقا فى مصر . بشكل خاص : رتب وقف اطلاق النار (١٢ ــ ٢٥) اكتوبر واتفاق النقاط الست واهمها فك الحصار البحري وتبادل الاسرى ، وافتتاح مؤتمر جنيف (٢١ ديسمبر ٧٤) ولو بشكل بروتوكول فقط فك الاشتباك الاول يناير ١٩٧٤ انهاء الحظر العربي على تصدير النفط مارس ١٩٧٤ اتفاق فك الاشتباك مع سوريا مايو ١٩٧٤ .

ولم تكن هذه الخطوات السياسية معلقة فى الهواء بل كانت تتم بموازاة تغيرات اقتصادية فى مصر لصالح الاحتكارات الامريكية . اذ يذكر د . سعد الدين ابراهيم فى كتابه كيسينجر وصراع الشرق الاوسط مسألة ذات دلالة هامة ، اذ فى الوقت الذي كانت فيه سفن الاسطول السادس تتحرك لتطهير القناة بعد اكتوبر كانت ثلاث بنوك امريكية كبرى تطلب ترخيصا لفتح فروع لها فى مصر .

فى تحركات كيسنجر لفك الاشتباك الثاني في سيناء حصلت مسائل مهم ذكرها الآن من اجل اولئك الذين يعلقون اوهاما على الخلافات الامريكية الاسرائيلية فقد رفضت اسرائيل عرض كيسنجر لفك الاشتباك الثاني وذاق الوزير الامريكي طعم الفشل لاول مرة . وبدا في امريكا ما يسمى بسياسة اعادة التقويم على ضوء التعنت الصهيوني فماذا حدث ؟

« قال كيسنجر لفورد كما يذكر كتاب المحاضر السرية : ان مجال المناورة بالنسبة للولايات المتحدة لاتخاذ اجراءات فعلية ضد اسرائيل هو مقلص لان أية خطورة فعلية سياسية اقتصادية عسكرية قد تزيد من خطورة وضع اسرائيل بشكل لا يتفق مع مصالح الولايات المتحد ة. واعتذر للصحافيين عن حملته القاسية ضد تعنت اسرائيل قائلا لهم : قد تسمعون على لساني ادعاءات واتهامات صعبة ضد اسرائيل وتصلبها ، ولكن يتعين عليكم ان تتذكروا دائما شيئا واحدا وهو ان تصلب اسرائيل لا ينفي ان الحق الى جانبها لانها محاطة بدول تريد القضاء عليها » وانتهت مسرحية اعادة التقويم بتأجيل زيارة مردخاي هود لامريكا وتأجيل وصول صواريخ لانس ، وتجميد صفقة تافهة بمبلغ ٧٥ مليون دولار .

كانت سياسات فك الاشتباك المقدمة المنطوية لما اقدم عليه السادات فيما بعد حين اعدم كل خياراته وتحالفاته . وقال دايان : لقد أديرت محركات طائرة السادات حين طرد الخبراء السوفيات وبدأ سياسة تنويع السلاح وقبل باتفاقيات فك الاشتباك بكل ما يعنيه ذلك من استبعاد للخيار العسكري . ولكن طوال السنين وبضعة شهور التي وقعت بين فك الاشتباك الثاني في سيناء وزيارة السادات للقدس ، لم تترك امريكا المنطقة بلا حركة سياسية . صدرت وثيقة معهد بروكتينفر نحو السلام في الشرق الاوسط ووثيقة ساندروز ـ مساعد وزير الخارجية الامريكي ومسئول الاتصال بين الخارجية ومجلس الامن القومي . واستبشر بعض المعتدلين العرب والفلسطينيين بالوثيقتين اللتين تحدثتا عن حقوق الفلسطينيين بشكل او بآخر ، تتجاوز حقوق اللاجئين الى حقوق سياسية لشعب . وتصاعد الحديث عن مؤتمر جنيف قريب جدا ، وعن محادثات الفرب في جلسة الجمعية العامة لعام١٩٧٧ تمهيدا لجنيف ، وجاء بعدها البيان الامريكي السوفيتي في اكتوبر عام ١٩٧٧ ، ثم قام السادات بزيارته للقدس في نوفمبر عام ١٩٧٧ ليبدأ عهد جديد في الصراع العربي الصهيوني تتوج في النهاية باتفاقيات كامب ديفيد وبخروج مصر من الصراع العربي الصهيوني وبوجود سقف جديد لاية تسوية على الجبهات الاخرى فيمثل في علاقات سليمة كاملة : تبادل البضائع والاشخاص أولا وقبل كل شيء .

وقامت امريكا بتعديل في استراتيجيتها في الشرق الاوسط يسمح بدخول شركاء صغار للنادي الامريكي ، على ان تبقى اسرائيل هي الشريك الاقوى والاكبر وتمثل ذلك باتفاقيات التعاون

الاستراتيجي بين امريكا واسرائيل التي أحلتها الاستراتيجية الامريكية الجديدة التي تقوم بالتخلص من عقدة فيتنام وانهاء مبدأ نيكسون كيسنجر ، والبدء فى سياسة تدخل مباشرة حين يقتصر الامر ، وقد تطورت هذه السياسة فى اواخر عهد كارتر (قوات التدخل السريع) ، وتلقت دفعة قوية فى عهد ستيفان . ومرة اخرى وجدت امريكا ان اسرائيل فى ظل السياسة الجديدة هي الحليف الموثوق به ، عكس الحلفاء الاخرين المعرضين للهزات الاجتماعية غير المتوقعة فى بعض الحالات .

تقول الجيوزلم بوست « ان اسرائيل استثناء وحيد . فالمجتمع بكليته ملتزم بصورة عميقة ، ولا حاجة هنا للجنود الامريكيين . ان هذا الحصن من حصون الغرب فى منطقة غير مستقرة ، لا يتطلب سوى المعونة المالية والدبلوماسية بالاضافة الى التدفق المستمر للامدادات. ان المرء ليتساءل فيما اذا لم يكن هذا ثمنا رخيصا لحليف يعتمد عليه. وفيما اذا لم تكن الدبابة المصنوعة فى ارض صديقة فى شرق المتوسط (اسرائيل) ، اكثر قيمة فى الدفاع عن الطريقة الغربية فى الحياة من الدبابة نفسها الموضوعة فى اريزونا .

وتقول ريفان عن اسرائيل فى مجلة فيكت ام سونتاغ الالمانية الغربية فى فبراير ١٩٨٢ ان اسرائيل كنز استراتيجي وهي الحليف الوحيد الموثوق بالنسبة لامريكا فى الشرق الاوسط وحاجز ضد التخريب السوفيتي فأسرائيل ليست قوية فحسب ، بل هي بلد ديمقراطي لا يخضع لنزوات الحكم الاوتوقراطي وتعتمد على مؤسسات ديمقراطية وعسكرية وتكنولوجية تجعلها قادرة على مساعدة الولايات المتحدة فى اوقات الازمات وتجعلها قادرة على ان تكون حليفا مخلصا لاسرائيل .

وحسب دراسة معهد « رانس » فى لوس انجلوس : ان اسرائيل هي الدولة الملائمة فى الحوض الشرقي للمتوسط لتخزين اسلحة قتالية امريكية تضم دبابات ومدرعات فى مستودعات طوارىء فى اسرائيل توضع بتصرف الامريكيين وقت الحاجة .

وهكذا فان مبادرة ريفان التي تشكل امتدادا لكامب ديفيد وايضاحا لبعض مسائله التي تركت عمدا غامضة فى حينه ، لا تعدو ان تكون محاولة لاستثمار الغزو الصهيوني للبنان ، من اجل ترتيب اوضاع الشرق العربي اقتصاديا وسياسيا ربما يخدم اهداف الولايات

المتحدة كما جرى استثمار حرب اكتوبر لترتيبات مماثلة على الجبهة المصرية .. فى داخل مصر وفى اطار علاقاتها بالصراع العربي الصهيوني وكل المناورات السياسية وعمليات الاغراء تارة المتمثلة بوعود كبيرة للضغط على اسرائيل حالما تبدأ المفاوضات حول القضية الفلسطينية وعمليات الترهيب تارة المتمثلة بالحملة الامريكية الوقحة ضد منظمة التحرير الفلسطينية على كل الاصعدة ، تستهدف الوصول لتلك النتائج ، التي سيكون انجازها تحقيقا للاهداف الاستراتيجية الامريكية كاملة فى المنطقة العربية بعدها يصبح الحديث عن نظام اقليمي لمقاومة الاتحاد السوفيتي امرا علنيا ويصبح العودة لمشاريع دالي « ايزنهاور » التي اسقطتها الجماهير العربية فى الخمسينات ممكنا ويصبح الحديث عن الاجماع الاستراتيجي الذي طويت صفحته برحيل الكسندر هيج حديثا ممكنا ايضا .

أيها الاخوة ثمة فى النهاية مسألتان هامتان هما مجال حوار يومي فى الساحة العربية ترتبطان بشكل وثيق بأمريكا والصراع العربي الصهيوني وهما : اللوبي الصهيوني وحجمه فى التأثير على السياسة الامريكية في الشرق الاوسط ، والخلافات الامريكية الاسرائيلية بين الحقيقة والمبالغة . ورغم انه من الصعب جدا الحديث فى سطور قليلة عن هذين الموضوعين الهامين الا انني سأحاول التركيز على الحقائق الكبرى فى هذا المجال .

لا أحد ينكر اهمية اللوبي الصهيوني فى التأثير على مجريات السياسة الامريكية وعلى الانتخابات الرئاسية . فاليهود فى امريكا ٣٪ من السكان لكنهم يدلون بنسبة أعلى من باقى السكان فيها حيث يدلون بنسبة ٤٪ من الاصوات وهم فى نيويورك ١٤٪ من السكان لكنهم يدلون بما نسبته ١٦ ــ ٢٠٪ من الاصوات وهم ممولون رئيسيون للحملات الانتخابية حيث يقدمون أكثر من نصف الهبات الكبيرة للحملات الانتخابية الديمقراطية وحوالي ثلث الهبات الكبيرة لحملات الجمهوريين وهم مسيطرون فى وسائل الاعلام والاهم من كل ذلك انهم يتجمعون فى الولايات الكبيرة الحاسمة انتخابيا والتي لها اصوات انتخابية عالية مثل نيويورك التي لم يخسرها منذ عام ١٨٧٦ مرشح ويفوز بالرئاسة واذا عرفنا ان المرشح يفوز بالولاية كلها او يخسرها كلها ، ربما لبضعة الاف من الاصوات . عرفنا اهمية اصوات الاقليات . كل ذلك صحيح تماما ولكنه نصف الحقيقة والنصف الآخر من الحقيقة ان السياسة الامريكية عليها المصالح الامريكية القوية التي تحميها اسرائيل كحليف

موثوق تماما . ان شندلر رئيس لجنة رؤساء المنظمات اليهودية فى امريكا كان واضحا حين قال . . ان اللوبي الصهيوني ينجح لان بضاعته مقبولة وعنوانها « ما هو حسن لامريكا حسن لاسرائيل » .

ايزنهاور أجبر اسرائيل على الانسحاب بعد حرب السويس ونجح فى الانتخابات بعد ذلك بأكثرية تفوق انتخابات عام ١٩٥٣ .

نيكسون فاز عام ١٩٦٨ وحصل على نسبة ضئيلة جدا من اصوات اليهود هي ٧١٪ ومع ذلك قدم فى عهده لاسرائيل ما يزيد على مجموع المساعدات التي قدمت لها على امتداد العشرين سنة التي سبقت رئاسته . وذلك لان مصالح امريكا فى ظل سياسة نيكسون ـ كيسنجر تعتمد على الدول الوكيلة التي تشكل اسرائيل اقواها وانجحها . لقد فشل اللوبي الصهيوني فى وقف صفقة ١٩٧٨ ، ١٩٨١ لمصر والسعودية لان مصلحة امريكا تتطلب اتمام الصفقات ، حيث لم يكن ممكنا ترويج البضاعة « ما هو حسن لامريكا حسن لاسرائيل » فى هاتين المسألتين .

كما ان الرأسمال اليهودي هو جزء من القاعدة المادية للاقتصاد الامريكي وليس منفصلا عنه او موازيا له . ولذلك يتحرك ضمن صراع اصحاب الصناعات العسكرية واصحاب الاستثمارات الامريكية في الشركات متعددة الجنسيات .

ولذلك يجب الحذر الشديد دائما من الدعاية التي تحاول تصوير المسئولين فى الخارجية والبيت الابيض بأنهم اناس طيبون لا حول لهم ولا قوة امام جبروت اللوبي الصهيوني . هذه دعاية تستهدف دائما تجميل الوجه القبيح للسياسة الخارجية الامريكية . فقد اثبتت مئات الحوادث ان امريكا كلما ازدادت مصالحها فى المنطقة العربية ، كلما ازداد تحالفها مع اسرائيل لحماية هذه المصالح وهذا هو المحرك الاساسى للسياسة الامريكية في بلادنا .

اما حكاية الخلافات الامريكية الاسرائيلية والتي يعلم البعض فى كل حركاتهم السياسية بتنميتها الى حد التناقض فهي حكاية صحيحة. انها ببساطة تعارض ينشأ احيانا بين المصالح الشاملة للامبريالية الامريكية وبين المصالح العنيفة لاسرائيل . او هي تعارض ينشأ احيانا بين المشروع اليهودي والمشروع الامبريالي الامريكي فى التجربة الصهيونية ولكنها لا ترقى الى التناقض للاعتبارات التي ذكرناها فى هذه المحاضرة .

اسرائيل واللوبي الصهيوني يحاولان تضخيمها دائما ويضيفان أي خلاف بنسبة ١٪ بين اسرائيل وامريكا بأنه بداية ميونخ جديدة .

يقول كيسنجر ان الصحفيين احاطوا به مرة فى مطار بن غوريون وسألوه عن اخبار خلافات عميقة بين الادارة الامريكية واسرائيل . قال لهم كيسنجر : نحن متفقون مع اسرائيل بنسبة ٩٨٪ فى كل القضايا، ولكنهم يعتبرون الاتفاق بأقل من نسبة ١٠٠٪ كاملة كارثة . والتفت الى أبا ايبان وزير الخارجية الاسرائيلي آنذاك وسأله .. اليس كذلك ؟ الغريب ان ايبان هز رأسه موافقا .

أيها الاخوة والاخوات .

لا سبيل الى احداث تغيير فى الموقف الامريكي تجاه قضايا الصراع العربي الصهيوني بالحوار والمناورة السياسية او بوضع كل الاوراق فى يدها لدينا تجربة دامية فى هذا المجال ، الذي لم يعد محل نقاش نظري بعد السادات وكل شيء الان منشور حول تلك الحقبة ويحتاج الى دراسة حقيقية بل المؤتمرات منشورة الان : كيسنجر ، كارتر ، دايان ، وايزمن ، محمود ابراهيم كامل .. نيكسون وغيرهم .

السبيل الوحيد لاجبارها على التراجع هو تطور حركة الشعوب العربية نحو التقدم الاقتصادي والاجتماعي الناجز بما ينهي وجود الاحتكارات ... الامريكية فى بلادنا وامتلاك الارادة والقرار السياسي للعودة لخيار القتال بكل ما يتطلبه ذلك تعبئة حقيقية للطاقات ومن تحالفات من نوع اخر تحدد بدقة معسكر الاصدقاء المستعدين لمساعدتنا فى المعركة الطويلة من معسكر الاعداء وبكل ما يتطلبه من تغيرات داخلية . وذلك لتحجيم الدور الاقليمي والمتفوق لاسرائيل فى المنطقة عبر الانهاك المتواصل .

هذا طريق طويل وشاق ومحفوف بالمخاطر وربما بالنكسات المؤقتة ولكنه الطريق الوحيد لحماية الامن العربي والمستقبل العربي والارض العربية والمصير العربي .

من يريد ان يتصالح مع الطوفان الصهيونى المؤقت ، بتقديم القرابين له فليفعل اما الجماهير العربية فستعرف كيف تشق طريقها فى النهاية مهما بدا ذلك فى اللحظة الراهنة متعسرا ومرتبكا .

أشكركم على اصغائكم ـ والسلام عليكم ،،،

أزمة الديمقراطية في الوطن العربي ودور العسكر فيها

الدكتور خلدون النقيب

أزمة الديمقراطية فى الوطن العربى
ودور العسكر فيهـا

لقد ارتبطت قضية الديمقراطية فى تاريخنا المعاصر ـ بدءا من سنة ١٩٢٠ ـ بقضايا ثلاث اخرى هي : قضية الاستقلال ، وقضية الوحدة ، قضية التنمية . وكانت هذه القضايا الثلاث هي الخلفية الاساسية لنضال دام قرابة سبعين عاما بدءا من حزيران سنة ١٩١٣ (وهو التاريخ الذي يصادف المؤتمر العربي الاول) .

بيد ان الصلة التي تربط بين هذه القضايا الاربع (الديمقراطية ، والاستقلال ، الوحدة ، التنمية) لم تكن واضحة الوضوح الكافي حتى الان ولفترات مختلفة من تاريخنا المعاصر كانت هنـاك اسئلة تطرح باستمرار مثل :

هل بالامكان تحقيق الاستقلال السياسي بدون الوحدة ؟ هل بالامكان تحقيق الوحدة بدون الديمقراطيـة ؟ هـل بالامكان تحقيق التنمية الفعلية بدون الاستقلال وبدون الوحدة وبدون الديمقراطية ؟.
لقد ظلت القضايا الاربع غير واضحة ونضرب لذلك الامثلة التالية :

١ ـ كان بالامكان مثلا تحقيق التنمية بدون ديمقراطية فلقد تمكن هتلر من تحويل المانيا من دولة مهزومة الى دولة عظمى بدون ديمقراطية .
٢ ـ كان بالامكان ايضا تحقيق الاستقلال بدون ديمقراطية والمثال على ذلك فيتنام الشمالية التي حررت فيتنام الجنوبية دون ان يكون فى فيتنام نظام ديمقراطي بالمعنى الديمقراطي المعروف .

٣ ـ التضحية بالديمقراطية فى سبيل الوحدة ـ وهـو مثال واضح ـ ينطبق على سوريا التي ضحت بمكاسبها الديمقراطية النسبية من أجـل تحقيق الوحـدة مـع مصر .

وبطبيعة الحال انني اتكلم من زوايا مختلفة عن تعريف الديمقراطية والاستقلال ... الخ .

حيث ظلت العلاقة ـ كما ذكرت ـ بين هذه القضايا الحيوية غير واضحة المعالم اللهم الا اذا كنا نصبو الى الديمقراطية كهدف في حد ذاته وهذا الموضوع التاريخي لم يطرح بشكل واضح الا منذ سنة ١٩٢٩ عندما طرح الامير شكيب ارسلان هذا التساؤل الجوهري (لماذا تاخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم) .

وقد طرحت هذه القضايا مجتمعة احيانا ومنفردة احيانا اخرى غير انه من النادر ان تناقش هذه القضايا بشكل جماعي يتولد عنه حوار وجدل تتراكم نتائجه بشكل موضوعي يعني على رسم طريق بديل أو تقديم مشروع افضل مما هو قائم غير ان موضوع الديمقراطية طرح في شكلها الشمولي سنة ١٩٧٤ في ندوة ازمة التطور الحضاري فى الوطن العربي وقد نوقشت فى ذلك المؤتمر مسألة التخلف السياسى حيث كان مدار النقاش حول عنوان « التخلف السياسى وابعاده الحضارية » وكلما توالت النكبات والهزائم على العرب كلما اعيد طرح هذه القضايا الاربع فبعد سنة ١٩٤٨ كانت محاولة قسطنطين زريق فى تفسير معنى النكبة ، وتبعه بعد ذلك كثيرون اما بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م فقد جاء فيض من الكتب والدراسات والاجتهادات ونضرب الامثلة منها ـ لافتة للنظر ـ مثلا : صادق جلال العظم « النقد الذاتي بعد الهزيمة (١٩٦٩) سعدون حمادي » النكبة العربية وقضية الوحدة العربية ،، ١٩٦٧ قسطنطين زريق ،، معنى النكبة مجددا ،، ١٩٦٩ بسام طيبي ،، ماذا تعلمنا من النكبة الاخيرة ١٩٦٨ السيد ياسين « الفكر العربى فى مواجهة الهزيمة » ١٩٧٢ .

في كل هذه المحاولات كانت قضية الديمقراطية من أهم القضايا الاساسية الا ان صلتها بالقضايا الحيوية الاخرى غير واضحة من جهة ومن جهة ثانية ـ وهنا الشيء الغريب ـ ان هذه المحاولات والدراسات انما تأتي من زوايا ذاتية وتأتي فى شكل اجتهادات شخصية لا يترتب عليها حوار أو نقاش يؤدي الى اسلوب جديد فى التعامل مع القضايا

الحيوية أو تقييم للهزائم والنكبات أما الحالة الوحيدة التي خصصت فيها ندوة لقضية الديمقراطية او غيابها فى الوطن العربي هى تلك التى دعا لهـا منتدى الفكر والحوار المغربي فـى الرباط فى نوفمبر ١٩٨٠م بعنـوان « ندوة اشكالية الديمقراطية فى العالم العربي » وقـد صدر ملخص لأعظم ابحاثها بعنوان « التجارب الديمقراطية في الوطن العربي » صـدرت في بيروت سنة ١٩٨١ .

وفي هذه الندوة ـ كما فى المحاولات الذاتية والفردية السابقة ـ ترديد الكثير من المفاهيم الخاطئة عن « ما هى الديمقراطية التي تصلح للمجتمـع العربى » كذلك عن البرلمـانية المشوهة ، ونذكر على سـبيل المثال واحـدا من تصريحات محسن خليل في هـذه الندوة اذ يقـول « يرفض حزبنا البرلمـانية ولا يرفض البرلمان » لكن مـا معنى ذلك ؟ يرفض البرلمـانية ولا يرفض البرلمان كما ان هنـاك تعريفات فى منتهى الغرابة ـ عن تصنيفات الديمقراطية منها المركزية الديمقراطية ، .... الديمقراطية الشعبية ، الديمقراطية الليبرالية وهناك ايضا محاولات اشـبه ما تكون بالغيبيات منها على سبيل المثال محاولة أخرى لأحـد المساهمين فى الندوة مفزاها ،، الحزب القائد كمؤسسة ديمقراطية الخ كيف يكون الحزب القائد مؤسسة ديمقراطية ؟ ؟ الحزب القائد بديل عن كل المؤسسات الديمقراطية .

واضح اذا ان تلك الندوة لم تخرج الا تبادل الآراء حـول مفاهيم ذاتية غامضة لمؤسسات واحزاب ساهمت بطريقة او بأخرى فى ضياع المكاسب الديمقراطية النسبية فى البلاد العربية منذ نهايـة الاربعينات من هـذا القرن) وانـا ادعى بان أقسى ضربة تعرضت لها المكاسـب الديمقراطية النسبية التي تحققت في الثلاثينات والاربعينات والحياة الدستورية فى اغلب البلاد العربية على الرغم من التشويه الذي لاحقها والقيود التي فرضت عليها من ادارات الانتداب والاستعمار .. الخ . اقول ان اقسى ضربة جاءت على يـد العسكر عام ١٩٤٩ وذلك فى اغلب البلدان العربية الرئيسية ـ واقصد هنا سوريا ومصر والعراق ثـم السودان ـ اما بقية الدول العربية الاخرى فقد كانت ولا زالت خاضعة لنظم قبلية تقليدية ابعد مـا تكون عـن الديمقراطية معناهـا الحديث فموضوع الديمقراطية ليس واحدا من اهتمامـاتها .

وسأحاول فيما يلي – وربما أطيل عليكم بعض الشيء – ان استعرض الاحداث التاريخية التي رافقت مجيء العسكر بدءا من عام ١٩٢٠ والخطوات التي اتبعها العسكر في تصفية المكاسب الديمقراطية في البلاد العربية الرئيسية وفي التسبب في أزمة الديمقراطية التي نعاني منها الآن .

انا أريد ان أشرككم معي في هذه الافكار لانها نادرا ما تطرح بهذه الطريقة في محاولة لتقنين المسيرة ، وهنا ايضا أضيف اجتهادا جديدا واعتقد بأنه من المناسب قبل البدء في تقييم الديمقراطية وأزمة الديمقراطية في الاوضاع الحاضرة ان نتبع هذه المسيرة التاريخية التي أدت الى مجيء العسكر والتي جعلت من العسكر الوسيلة التي تضرب بها المؤسسات الديمقراطية .

عام ١٩٢٠ كحد فاصل في تاريخنا المعاصر :

نبدأ بالكلام عن الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الاولى مباشرة وهذه الفترة على وجه التحديد من ١٩١٦ الى ١٩٢٤ وقد اتضحت معالمها في عام ١٩٢٠ كحد فاصل لتاريخنا الحديث وافرق هنا بين الحد الفاصل والمنعطف التاريخي ، واعتقد ان الحد الفاصل – من وجهة نظري – مثل الآتي :

١ – انه يمثل ملتقى احداث سبقته بفترة طويلة .

٢ – انه يمثل تحولا أساسيا في مجرى هذه الاحداث .

٣ – انه يحدد اتجاها واضحا لا يمكن الرجوع عنه الا بعد فترة زمنية طويلة نسبيا .

مدى مساهمة الفئات المحلية في السلطة :

الذين جاءوا الى السلطة في هذه الفترة هم ممثلون لملاك الاراضي والتجار من السكان المحليين ففي مصر (حزب الوفد) وفي العراق (القوى التي تحالفت مع ثورة العشرين) وفي سوريا (قادة الحركة القومية الاولى) وفي الجزيرة العربية اكتسبت التحالفات القبلية الاقليمية شكل الدول كالسعودية واليمن وعمان ... الخ ولكن مجيء هؤلاء مثل بعدا تاريخيا بالغ الاهمية ، فلم يحدث ان حكم البلاد العربية ممثلون عن السكان المحليين من هاتين الفئتين منذ ظهر البويهيين أو

السلاجقة والمماليك (من منتصف القرن العاشر الميلادي في العراق والقرن الحادي عشر في سوريا ومصر) ، وقد خضع مجيئهم للسلطة لعملية (اختمار طويل بدأت بشكل واضح منذ التنظيمات (حركة الاصلاح الاولى في الدولة العثمانية في عام ١٨٣٩) .

كما مثل مجيء ملاك الاراضي والتجار من السكان المحليين تحولا أساسيا في مجرى الاحداث منذ ذلك الحين وحدد اتجاهها الى الوقت الحاضر الذي نعيشه الان وان كان قد خضع لتحولات رئيسية متمثلة بالمنعطفات التاريخية ، تلك التي سنتكلم عنها بعد قليل ، ويجب الا يغيب عنا ان هذه الفئات جاءت الى الحكم كفئات معارضة وكانت قد وصلت ايديولوجيتها الى قدر من النضج النسبي ، وتحولت مطالبها من الدعوة الى الاصلاح في داخل الدولة العثمانية الى المطالبة بالحقوق السياسية ثم الاستقلال الناجز والديمقراطية والمحافظة على حقوق الاقليات ، وهذا كان في الحقيقة هو نقطة التحول في المؤتمر العربي الاول في سنة ١٩١٣ .

وقد كانت هذه المطالب تمثل بدائل حقيقية في طريقها الى التبلور وان لم تكن قد تبلورت بعد ، وكانت مطالب مشتركة تلتقى منها مصالح معظم فئات السكان ، ولذلك فقد استمرت هذه المطالب تشكل القاسم المشترك لمعظم فئات المعارضة من ذلك الحين الى وقتنا الحاضر .

التغيرات التى طرأت على السلطة (قوى المعارضة)

كانت قوى المعارضة قد خضعت بعد عام ١٩٣٠ لتغيرات هامة منها ظهور التنظيمات السياسية والثقافية والنقابية والمهنية بشكل تدريجي ثم ان هذه التنظيمات قد تسببت بشكل او بآخر في نشر الوعي السياسي والثقافي بين سكان المدن وبين الفلاحين بدرجات متفاوته ، وقد اضاف هذا بعدا جديدا للعملية السياسية بعد ان كانت المساهمة السياسية محصورة في المدن وفي الفئات المتعلقة او المتمدنة منها بشكل خاص .

ايديولوجية الفئات الحاكمة :

وهنا نتكلم عن فترة العشرينات واواخر الثلاثينات حيث بدأ يظهر النشاط السياسي والنقابي والمهني ويأخذ في الوقت نفسه مساره ويكتسب ديناميكية ملحوظة وعالية، وانه لمدعاة للاسف اننا الى الوقت الحاضر لانملك الدراسات الميدانية التحليلية لهذه الفترة حتى نستطيع ان نقيم بشكل

تفصيلى بناء الفئات الحاكمة وايديولوجيتها ولكن هناك الكثير من الدراسات الوصفية ذات الطابع السردى التى تتناوله من زاوية واحدة هى الصراع والاستعمار حيث كان بناء الفئات الحاكمة خلال تلك الفترة ـ سواء كان فى العراق او سوريا او مصر ـ غير واضح المعالم الا فى قضية واحدة هى الصراع مع الاستعمار ، وهذا يأتى عادة من خلال ما يسمى بتأسيس الحكومات الوطنية حيث ابتدا تشكيلها منذ عام ١٩٢٠ ، تلك الحكومات التى تعاقبت او تناوبت على الحكم بسرعة رهيبة ، ولم يزد عدد السنوات التى حكمت منها كل حكومة من الحكومات عن السنتين فى المتوسط فى مصر ، اما فى العراق وسوريا فلم تتجاوز عدة اشهر ونضرب لذلك مثلا بما حدث فى العراق فقد حكم فى عهد تأسيس الحكومة الوطنية فى الفترة من ١٩٢٠ (أى أول حكومة وطنية) الى سنة ١٩٣٧ ـ عندما قام بكر صدقى باول انقلاب عسكرى فترة ١٧ سنة ـ ٢٤ وزارة بقى ١٩ منها فى الحكم فترة تقل عن السنة ، خمسة حكمت اقل من سنة ونصف ، بمعدل لفترة الحكم يساوى ٧ر. شهر لكل وزارة .

الا ان الاطار العام لعملية الصراع الاجتماعى ـ السياسى التى تجد منطلقها فى الحد الفاصل ١٩٢٠ الذى مثلته هذه الفترة قد بدا يتضح فى الثلاثينات من هذا القرن ، فقد اجبرت الحكومات الوطنية على القبول بانجازات اقل بكثير من مطالب عام ١٩٢٠ ، وذلك بعد صراع مرير مع الدول الاستعمارية وادارات الانتداب ، وهذه الانجازات التى اتكلم عنها تمثلت فى معاهدة سنة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا ، اوما مثله استقلال العراق الصورى عام ١٩٣٢ ، وبقيت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى والجزيرة العربية تحت التحالفات القبلية .

مفهوم الايديولوجية القومية :

علينا ان نتذكر بأن الايديولوجية القومية بشكلها العلمي لم تكن حكرا على الطبقة الوسطى كما يراد لنا أن نعتقد وكذلك فانها كانت تفسر تفسيرات متباينة فعلى سبيل المثال (مشروع الهلال الخصيب) فى تصور المفتى الحسينى غير تصور رشيد عالى قليلات ، غير التصور الهاشمى غير التصور القومى السورى ، كما ان مصر لم تكن قد تعرضت بعد للتيار الايديولوجى القومى العربى وكان تفكير معظم القادة المصريين ينحصر فى القومية المصرية ، ولم يبدأ التحول نحو القومية العربية او الاتجاه العروبى الا فى عهد مصطفى النحاس بعد الحرب العالمية الثانية (بعد ١٩٤٥) او قبل انقلاب عبد الناصر بعد سنوات .

واذا كانت الايديولوجية القومية تدعو الى التآلف والتضامن العربي وتأجيل الصراع بين القوى الاجتماعية والسياسية الى ما بعد تحقيق الاهداف القومية ، فان هذه القوى الاجتماعية قد بدأت تنظم نفسها في احزاب سياسية ونقابات واوجدت لها اطارا ايديولوجيا فضلا عن الايديولوجية القومية بعد الثلاثينات من هذا القرن متمثلا بالاحزاب والمنظمات الشيوعية والاشتراكية والدينية الطائفيةاذ انمعظم التنظيمات تجد جذورها في الثلاثينات من هذا القرن .

التجزئة واقامة وطن قومي لليهود في فلسطين :

الذي اريد ان اقوله انه في نهاية الثلاثينات بدأ الادراك يترسخ بأن تجزئة البلاد العربية اصبحت أو اوشكت ان تكون حقيقة واقعة وجانب من هذه التجزئة كان يتمثل في اقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين وقد رافق هذا الادراك التحول التدريجي للحكومات الوطنية الى شركاء محليين للدول الاستعمارية ـ وفي هذه الفترة وهي كما قلنا في نهاية الثلاثينات واوائل الاربعينات واقصد بالحكومات الوطنية هنا الحكومات ابناء البلاد ـ وليست سياستها الوطنية ـ وقد تمثل هذا التحول بوضوح في مصر والعراق والسعودية بينما سوريا كانت ما تزال تحت الانتداب ، وبدأت الشعارات القومية وشعارات الاصلاح التي كانت ترفعها الفئات الحاكمة عندما حدث الحد الفاصل في عام ١٩٢٠ تتكشف عن ما يلي : ـ

١ ـ مصالح احتكار الحكم والاستمرار فيه

٢ ـ القبول بالتجزئة

٣ ـ نمو طبقة اقطاعية كبيرة من ملاك الاراضي وطبقة تجارية ثرية على حساب الاصلاح والعدالة في توزيع الدخل (كما حدث في مصر قبل سوريا والعراق بفترة طويلة)

٤ ـ بالاضافة الى تأثيرات الازمة الاقتصادية التي رافقت الكساد العظيم أولا ثم الحرب وابتدأت حدة الصراع بين القوى الاجتماعية ـ السياسية تصل الى مستويات عالية .

العوامل والتغيرات التي صاحبت الصراع بين القوى الاجتماعية والسياسية

لا يفوتنا ان نذكر بان التغيرات المتزامنة مع هذا الصراع تعود الى العوامل التالية :

أ ـ الظهور التدريجي للدور السياسي للطبقة الوسطى والطبقة العاملة .

ب ـ تزايد هجرة الفلاحين من الريف الى المدينة .

جـ ـ بروز الاقليات كتنظيمات سياسية أو جماعات منضوية فى احزاب سياسية ـ معنية المواجهة بين القوى الوطنية وبين الدول الاستعمارية وظهور الاحزاب السياسية :

وقد تأجج الصراع الاجتماعي بشكل لم يسبق له مثيل بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة بحيث أنه كان يسير حثيثا نحو المواجهة بين القوى الوطنية الممثلة بالطبقة الوسطى والمثقفين والعمال وبعض فئات التجار ـ أو ما يسمى بالبرجوازية الوطنية وبين الدول الاستعمارية وشركائها المحليين المتمثلين فى الاقطاعيين وكبار الملاك والتجار والامراء القبليين ، هذان هما طرفا المواجهة وكانت هذه المواجهة تحدث فى داخل الحياة الحزبية فى عام ١٩٤٥ عندما سيطرت الاحزاب الرئيسية الستة وهى ، الاستقلال ، والوطني الديمقراطي ، والاحرار والشعب ، والاتحاد الوطني ، والتحرر سيطرت على الحياة السياسية وخاصة بعد دخول هذه الاحزاب فى تحالفات مع المنظمات المهنية والنقابية (كاتحاد العمال واتحاد الطلاب واتحاد الاطباء واتحاد المحامين وهكذا باقى الاتحادات النقابية) وفى سوريا ولبنان كان ذلك عام الاستقلال عندما باشرت الاحزاب الرئيسية العمل تمهيدا لانتخابات سنة ١٩٤٧ فى سوريا وكانت هذه الاحزاب الرئيسية هى الكتلة الوطنية التى تحولت الى الحزب الوطني ، وحزب الشعب ثم حزب البعث وفى مصر كان حزب الوفد يمثل تحالفا رئيسيا لفئات اجتماعية وسياسية متفاوتةوتحالفا للقوى الوطنية وكان يجابه باستمرار بالاحزاب اليمينية كحزب الاتحاد وحزب السعديين وحزب الشعب وحزب الاحرار الدستوريين كما ظهرت الاحزاب اليمينية فى سوريا والعراق لمواجهة التحول التدريجى الى اليسار أو الاصلاح اليسارى فى الاحزاب الرئيسية كما كان الحال مع حزب الشعب والحزب الوطني فى سوريا وحزب الاتحاد الدستورى وحزب الاصلاح وحزب الامة الاشتراكي فى العراق .

مرحلة الاستقطاب السياسى والمواجهة العسكرية فى فلسطين ١٩٤٨

يجب ان لا ننسى ان المواجهة الحقيقية التي نتكلم عنها لم تكن محصورة في المواجهة بين الاحزاب اليمينية واحزاب الاصلاح الوسطى

والاصلاح اليساري بل تعدت ذلك لتشمل أحزابا ومنظمات حزبية ونقابية راديكالية علنية ومحظورة وتشمل فئات واسعة من السكان (ففي مصر كانت سنة ١٩٥٠ ، ١٩٥٢ فترة صراع محتدم بالاضافة الى الاحزاب والتنظيمات المهنية المختلفة كانت عشرات ان لم تكن مئات ـ النشرات تصدر كل يوم عن نشاط الضباط الاحرار والطلاب والعمال ... الخ) وكان الصراع متأججا على مختلف المستويات وقد ضاعف من ديناميكية الصراع الاجتماعي ـ السياسى الاحداث المؤدية الى المواجهة العسكرية فى فلسطين عام ١٩٤٨ ونستطيع ان نقول بأنه فى اواخر الاربعينات واوائل الخمسينات من هذا القرن قد وصل الصراع الاجتماعي منها الى مرحلة الاستقطاب السياسي مما أعطى الانطباع وكأن العملية السياسية قد أصيبت بالشلل (ولا يوجد للاسف اية دراسات تحليلية وعلمية لتقييم هذه الفترة الحاسمة فى تاريخ العرب المعاصر ، ولكنني انتفعت كثيرا من مناقشاتي حول هذه الفترة مع الدكتور فؤاد زكريا ، الذي اعانني على استيعاب المناخ الفكري والسياسى السائد آنذاك ـ وبذلك يكون المسرح قد أعد لاحداث تاريخية جسام لقد كان أساس المواجهة وصلبها بين القوى الوطنية المعارضة والفئات الحاكمة من القوميين القدامى الذين وصلوا الى السلطة بعد عام ١٩٢٠ هو تحول الاخيرة النهائي نحو اليمين ودخولها فى تحالف مصيري مع المصالح الامبريالية فى المنطقة (وهنا أتكلم عن القوميين القدامى كنوري السعيد فى العراق وفي مصر الاحزاب اليمينية التي كانت تأتي الى الحكم ، وقد حاولت هذه الفئات وقف حركة المعارضة التي اتخذت شكلا واضحا على أساس المطالب القديمة اياها التي أوصلت الفئات الحاكمة الى السلطة بالعديد من الطرق منها : تشكيل الاحزاب اليمينية ومحاولة شق الحركة الوطنية ، وبالاحكام العرفية المؤقتة وبالاضطهاد السياسى والقمع ، ولكنها فشلت في كل ذلك فشلا ذريعا فلم تستطع ان توقف حركة المعارضة .

ربما يكون تفسير هذا الفشل يكمن فى ان هذه الفئات الحاكمة كانت تمثل فئات طبقية لها مصلحة واضحة فى انتظام العملية الاقتصادية السياسية واستقرارها واستقرار النظام الاقتصادي والسياسى أو ربما يعود ذلك الى عدم قدرتها على الخروج من اطار العملية السياسية التي تجد أصولها فى فترة الحد الفاصل فى تاريخنا المعاصر .

معادلة الاستقطاب السياسى والاجتماعي وكيفية حلهـا .

لا نستطيع بالمعلومات المتوفرة الآن ان نقرر في هذا الامر سببـــا معينا على وجـه التحديد لفشل هذه الحكومات فى القضاء على المعارضة ولكن الشيء المؤكد هو ان حل معادلة الاستقطاب السياسى والاجتماعي كان مهيئا لطرف ثالث ليست له مصالح مباشرة فى العملية الاقتصادية السياسية ، غير مصلحته الخاصة الانانية ولذلك فهو أكثر حسما واشد بطشا وموحدا غـير مشتت يسهل التعامل معه ، ولـم يكن يملك هذه المؤهلات في تلك الفترة غير ضباط الجيوش العربية أو العسكر ، وهكذا من بعد ما يسمى بالنكبة فى فلسطين عـام ١٩٤٨ . وفى اقل من خمس عشرة سنة وقع أكثر من ثلثي البلاد العربية فريسة للعسكر : سوريا فى عام ١٩٤٩ ، مصر ١٩٥٢ ، العراق ١٩٥٨ ، السودان ١٩٥٨ ، اليمن ١٩٦٢ ، الجزائر ١٩٦٥ ، واخيرا ليبيا عام ١٩٦٩ ثم تعاقبت الانقلابات وتصاعـد معـدل حدوثهـا في هذه البلدان بحيث وصل مجموعهـــا فى الفترة من ١٩٦٠ الى ١٩٧٠ الى ٣٨ انقلابـا فى كل البـلاد العربيـة منها عشرون انقلابا ناجحا .

وكل من يريد ان يتصدى لتفسير هذه الظاهرة فى اطارها الاقليمي العالمي (كجزء أو حلقة من الظاهرة العسكرتيارية التي اجتاحت العالم المتحضر وخاصة الثالث بعد الحرب العالمية الثانية ، لا بد وان يواجـه او يحاول الاجابة عن واحد او اكثر من الاسئلة التالية : ــ

١ ــ اية كفة كانت ارجح قبل مجيء العسكر : كفة القوى الوطنية ام كفة الفئات اليمينية (ويلاحظ ان هذه الصفة ليست بالضرورة او دائما صحيحة الا في وضـع البلاد الغربية قبل سنة ١٩٦٠ فمن الممكن ان تكون الفئة الحاكمة يسارية والانقلاب العسكري يميني) .

٢ ــ لو لم تحدث الانقلابات ماذا يمكن ان يحدث ؟ هل كان بامكان القوىالوطنية ان تصل الى السلطة من جديد مهددة المصالح الامبريالية ؟

٣ ــ هـل كانت الانقـلابات ضروريـة او حتمية لمنـع وصـول القـوى الوطنية الى الحكم او لانقاذ البـلاد من كارثة أهلية أو كارثـة اقتصادية ؟ أو لحل مازق عملية التنمية او مازقها عندما تصل او توشك الى طريـق مســدود ؟

٤ــ هل مثل الانقلابيون العسكر مصالح طبقة أو فئات كتلـك التي يطلق عليها الطبقة الوسطى الجديدة .

٥ ــ هل كان الانقلابيون العسكر واعين لدورهم التاريخي في منع القوى الوطنية من الوصـــول الى السلطة ؟ او فى الغاء وحجب المكاسب الديمقراطية والدستورية عن عامة الشعب ؟ هل هم بنـــاة امم ام دول ؟ ام انهم مجرد بيادق فيما يسمى بلعبة الامم ؟

٦ ــ ما هى علاقة الانقلابيين العسكر بالدول الصناعية الرأسمالية وخاصة الدول الكبرى ؟ ما هو دورهم فى الصراع الدولي والظـــاهرة العسكرتيارية ؟

المنظور التاريخي لظاهرة الانقلابات العسكرية فى البلاد العربية :

ولمـا كانت الاجابة عن الاسئلة المطروحة تتطلب دراسات تفصيلية ومعلومات واسعة فاننا سنقصر اهتمامنا بظاهرة الانقلابات العسكريـة والنظم السياسية ــ العسكرية التي تولدت عنها بالقضايا والمعلومـــات المتيسرة ، ولذلك فاننا مطالبون بأن نضع ظاهرة الانقلابات العسكريـة التي جاءت بعد الحرب العالمية الثانية وهزيمة البلاد العربية فى فلسطين وعلى وجـه التحديد بدءا بعام ١٩٤٩ فـي منظورها التاريخي والعالمى الصحيح ، فقـد شاع الاعتقاد لدى كثير مـن المفكرين والمحللين الغربيين بأن العنف وخاصة العنف المسلح هو الاسلوب « الطبيعي » أو المقبول لحل النزاعات والصراعات الاجتماعية والسياسية في مجتمعات العالم الثالث وقد حكمت البلاد العربية منذ سقوط الخلافة العباسية حتى سيطرة البويهيين والخلافة الفاطمية تحت سيطرة المماليك بل ان الدولة المملوكية والدولة العثمانية وحسب هذا الاعتقاد هى أمثلـة حيـة على النظم السياسية العسكرية ، أي يفتقر الى الضوابط المؤسساتية لانتقال السلطة من جماعة الى جماعة أو فئة حاكمة الى فئـة اخرى ، ولذلك تلجأ أطراف النزاع على الدوام الى حله بالعنف ، بالاغتيال بالغـزو ، بالتمرد وبالحروب الاهلية ولهذا فليس مجيء العسكر الى السلطة عـن طريق الانقلابات العسكرية بالشيء الجديد على هذه المجتمعات واذا كان هذا الاعتقاد معقولا فى الظاهر الا انـه على تصور وفكر سطحي للعملية الاجتماعية ــ الاقتصادية ويفضل الى حد بعيد الانقطاعات البنائيـة فى هذه الاستمرارية الحضارية .

---

* للمؤلف دراسة غير منشورة تتناول ظاهرة العسكرتيارية بشيء مـن التفصيـل وهي معنونة : نحو علم اجتماع سياسي لدراسة الانقلابات العسكرية فى البـلاد العربية (حالة مصر وسوريا والعراق) .

مفهوم العنف والانقلابات العسكرية الحديثة :

نعم ان العنف ـ وهنا العنف السياسي ـ ظاهرة عامة ذات ابعاد تاريخية واجتماعية ـ نفسية عميقة في كل المجتمعات الانسانية الا ان هناك فروقات نوعية مهمة بين العنف والنزاعات المسلحة التاريخية القديمة وبين العنف والنزاع المسلح المتمثل بالانقلابات العسكرية الحديثة وتلك الفروقات هي :

أولا : التغيرات التي طرأت على الدولة ووظائفها وخاصة التخصص في اداء وظائف الدولة فوظيفة القمع والعنف السياسي هي وظيفة تابعة ولاحقة لنظام الحكم ولم تعد تخدم كأساس لشرعية النظام الحاكم كما كانت تفضل في السابق .

ثانيا : تغيرت طبيعة العنف المسلح بحيث أصبح تأثيرها اكثر شمولية وعسفا وعشوائية فاذا كان العنف يحقق غرضا سياسيا في السابق فانه ينتهي عند تحقيق هذا الغرض اما في الاوضاع الراهنة فانه لا ينتهي عند تحقيق غرض معين وفي بعض الاحيان يتحول الى غرض بحد ذاته كما سنرى .

ثالثا : اذا كان العنف المسلح في الدول القديمة قد استهدف فرض نظام حكم معين او سيطرة جماعة دون اخرى فان العنف المسلح في ظل الامبريالية يرمي الى الاستعباد الكامل (الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والحضاري والنفسي لدول المركز الامبريالية وليس يستدعى لتحقيق هذا الاستعباد المباشر للعنف المسلح ولا يمكن محاربة هذا الاستعباد بمجرد استعمال العنف المسلح .

مرحلة الامن الامريكي :

في هذا الاطار يجب ان توضع ظاهرة الانقلابات العسكرية كعملية انتقال لدخول البلاد العربية في مرحلة الامن الامريكي « بعد ان مرت بمرحلة الامن البريطاني » ومثله « الامن العثماني » وفي هذه المرحلة الحديثة يعد العنف المسلح أمرا تختاره البلاد العربية (او شعوب العالم الثالث) وانما قد اصبح قدرا مفروضا عليها لا تستطيع الفكاك منه والوصول الى اهدافها بدونه ، وهو مسرح العرائس الذي تحركه خيوط دول المركز الامبريالية ، او ان شئت فهو كالملهاة الاغريقية القديمة ، التي يحفر ابطالها قبورهم بأيديهم * ولتوضيح هذه

الحقيقة نقول بأن الانقلابات العسكرية جاء في وقت هيمنة الامن الامريكي على العالم المتحضر ، ان اساس هذا الامن الامريكي هو العنف المسلح وان العنف المسلح اصبح قدرا مفروضا على البلاد العربية وضعت جدولا يوضح بيان عن تسلل ثلاثين نزاعا مسلحا رئيسيا في منطقة الشرق الاوسط حدثت في البلاد العربية بين سنة ١٩٤٥ (أي بداية دخولنا الامن الامريكي) الى سنة ١٩٧٥ وذلك بدون الحروب ، الاثنا عشر الاولى فقط كانت مع الدول الرسمالية الصناعية ، ومن سنة ١٩٤٥ الى سنة ١٩٦١ كانت هذه النزاعات موجهة ضد الدول الاستعمارية ، ومن سنة ١٩٦١ (من بداية سيطرة العسكر على البلاد العربية) بدأت هذه النزاعات المسلحة تتحول من نزاعات ضد الدول الاستعمارية الرأسمالية الى نزاعات أهلية اقليمية وحروب أهلية ، ومن سنة ١٩٦١ الى سنة ١٩٦٤ كانت نقطة التحول في مصر وهي فترة سيطرة العسكر .

ولكن يجب الا يفوتنا أن الملاحظ ان هناك خطأ زمنيا واضحا في هذه النزاعات المسلحة فقد توقفت او كادت النزاعات المسلحة مع القوى الرأسمالية الصناعية في عام ١٩٦١ (عانى ذلك الهيمنة العسكرية) ومنذ ذلك الحين تحولت الاغلبية المطلقة الى حروب أهلية او اقليمية بين العرب انفسهم واسرائيل ، وفي هذه الحالة فقد استعملت اسرائيل كوسيلة لتحويل مجرى النزاع المسلح في المنطقة بأكملها وربما لم يكن على سبيل الصدفة أن هذا التحويل حدث في العراق البلد الاسبق في الانقلابات العسكرية .

العسكر والحكم :

صحيح ان العسكر قد جاءوا الى الحكم بتأييد شعبي واضح وواسع النطاق ، ولكنه صحيح أيضا أن العسكر قد جاءوا الى الحكم بتعاون المعارضة السياسية المنظمة والعلنية والسرية ، وان هذا التعاون يسر للعسكر تدريجيا قاعدة شعبية واسعة للتغلب على الشك

---

* ولكن يجب ان لا يفهم من هذا ان مرحلة الامن الامريكي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية فهي قد بدأت في نهاية القرن الماضي ولكنها لم ترث الامن البريطاني بصورة فعلية الا بعد الحرب العالمية الثانية ، وكما نعلم بان امريكا اللاتينية كانت قد تحولت الى مزرعة امريكية في فترة مبكرة نسبيا .

واللامبالاة او الحذر ووجهوا بهم فى البداية وكان الامل فى ان يحقق العسكر مطالب الاستقلال والديمقراطية والتنمية التى عجز عن تحقيقها جيل كامل من القوميين القدامى وكذلك كان الاعتقاد فى البداية هو ان ظاهرة استيلاء العسكر على السلطة هى ظاهرة مؤقتة زائلة ، الى درجة ان الاغلبية المطلقة من القادة السياسيين والاحزاب السياسية بوجه عام لم تنتبه الى النمط الجديد الذى وضع لبناته الاولى اتاتورك ورفاقه فى تركيا المجاورة فى عام ١٩٠٨ الى عام ١٩٢١ ، بهلوى وزمرته فى ايران المجاورة عام ١٩٢٠ فى وقت تزامن مع الاحداث الجسام المصاحبة للحد الفاصل فى تاريخنا المعاصر .

اهداف الانقلابات العسكرية وانجازاتها :

لقد كان الهدف الاول للانقلابات العسكرية هو تحقيق « الامن والاستقرار » أو بعبارة أخرى تحقيق وضع قائم (ستاتوس كوو) مبنى على شرعية جديدة مفروضة بالقوة والعنف المسلح وكان هذا الهدف الاول موجودا وكامنا فى كل التحالفات التى اضطر العسكر للدخول اليها مع المواطنين القدامى في البداية ثم القوميين الجدد فى الانقلابات اللاحقة فى سوريا ومع الاخوان المسلمين فى مصر ومع الشيوعيين واضراب الاصلاح اليسارى فى العراق .. الخ وفى كل الاجراءات والمناورات التى اضطروا الى اتباعها فى البداية واذا كان العسكر قد حققوا انجازات فيما يتعلق بالاستقلال السياسى التأجز فان هذه الانجازات لم تكن على حساب الامن الامريكي ولم تهدد مبادئه وانما كانت جزءا من مشروعه ، ولذلك تبقى المقولة بأن الهدف الاول .. الانقلابات اللاحقة في سوريا ومع الاخوان المسلمين في مصر ومع الاستقلال اعطت هذا الامر الواقع بعدا قوميا تحرريا فى الظاهر وفاشستيا فى الاساليب . وللوصول الى هذا الاول فلم يكن الاستيلاء على مقاليد الحكم فلا بد من الاستيلاء على الدولة (كشبكة معقدة من المؤسسات) والنظام السياسى بأكمله وفي هذا السياق فقط يمكن ان تفهم قرارات الغاء الاحزاب السياسية ، وتعليق الدساتير واهدار المكاسب الديمقراطية واضطهاد المعارضة وقمعها بالاستبعاد اولا ثم القمع المسلح ثانيا بالتصفية الجسدية ثالثا ، وهكذا أصبح الارهاب المنظم للدولة التى استولى عليها العسكر الوسيلة الرئيسية للاحتكار الفعلى والفعال للسلطة .

---

* الاشارة هنا الى انقلاب بكر صدقي عام ١٩٣٦ وانقلاب رشيد عالي الكيلاني فى عام ١٩٤١ ، فى المرحلة السابقة على مرحلة هيمنة الامن الامريكي اذ ان كليهما فشل فى الاستمرار فى الحكم .

ومع ذلك فان أمرا واقعا بهذه الخصائص يبقى مهددا طالما كان هناك مواقع سلطة خارجة مستمدة من القوة العددية المتمثلة بالتنظيمات النقابية والمهنية فقط يمكن ان تفهم الاجراءات الهادفة للسيطرة على هذه المنظمات النقابية والاجراءات الاخرى التى استهدفت تحجيم القطاع الخاص (أى ما يسمى بالبرجوازية الوطنية) كالتأميم والاستيلاء والوضع تحت الحراسة « والتشريعات » المعقدة للرأسمال الخاص والاجنبى ومؤسساتها مما أدى الى التوسع الرهيب فى البيروقراطية فى كل مجالات الحياة الاستهلاكية والانتاجية على حد سواء .

وهكذا ففي أواسط الستينات من هذا القرن تكونت ملامح الأمر الواقع الذي جاءت به الانقلابات العسكرية وقد اتضحت ونضجت عناصرها نسبيا بحيث أصبح الوقت الذى يستغرقه نضج هذه الملامح والعناصر أقصر فأقصر ، فسوريا مثلث تحت حكم العسكر ١٢ سنة (من ١٩٤٩ – ١٩٦١) مصر ٩ سنوات (من ١٩٥٢ الى ١٩٦١) العراق ٥ سنوات (من ١٩٥٨ – ١٩٦٣) الجزائر (من ١٩٦٢ – ١٩٦٥) بعد الاستقلال مباشرة من أول سنة استولى فيها العسكر على الحكم .

نتائج الانقلابات العسكرية :

ولو اردنا أن نجمل ملامح الامر الواقع وليد الانقلابات العسكرية فى أواسط الستينات لقلنا أنه يتكون من العناصر التالية .

١ – احتكار القوة والسلطة فى المجتمع وتركيزها بيد الفئات الحاكمة الجديدة ، ومن أبرز مظاهر هذا الاحتكار نظام الحزب الواحد والارهاب المنظم للدولة وألغاء الحياة الدستورية والنيابية ، وقمع القوى المعارضة ، وسيادة العنف المسلح لفض النزاعات .

٢ – سيادة القطاع العام وتحجيم القطاع الخاص بدعاوى أن الفئات الحاكمة القديمة (الملاك والتجار) قد فشلوا فى تحقيق النمو الاقتصادى المطلوب وفي تحقيق العدالة في توزيع الدخل القومى وفتحوا أبواب الاقتصاد الوطني للنفوذ والمؤثرات الاجنبية (ولذلك فان الدولة تتولى مسئولية التنمية) وهكذا « رأسمالية الدولة » وأن تتولى كذلك حماية الاقتصاد الوطنى من المؤثرات الخارجية وتقلبات السوق العالمية وهذا هو فى حقيقة الامر من مظاهر احتكار القوة والسلطة فى المجتمع) .

٣ – تأليب القوى الاجتماعية – السياسية على بعضها البعض فى أوضاع يغيب فيها الدستور وسيادة القانون والحقوق الديمقراطية

مما أدى الى بروز مشكلة الاقليات العرقية والمذهبية ـ الطائفية كمشكلة سياسية ومهد الطريق الى ظهور التحالفات الطائفية ، والقبلية من جديد لملء الفراغ السياسى أولا ووسائل حماية وتحقيق مطالب ثانيا .

٤ ـ واخيرا فان اكثر عناصر الوضع القائم خطورة وأبعدها اثرا هو تضييق مجال الخيارات أمام البلاد العربية فى عملية التنمية ، وهذا لا يعنى الا شيئا واحدا وهو أنه بعد أن اكتملت عملية استيعاب البلاد العربية فى نظام العالم الاقتصادى فى المرحلة السابقة فانها تحت حكم عسكرى قد اكتملت تبعيتها ، ويتمثل ذلك بضعف أو انعدام قدرتها على مقاومة الضغوط الخارجية ومحدودية مجالات الاختيار الحر لسياسات تنموية مستقلة عن القوى الخارجية .

هزيمة سنة ١٩٦٧ والمنعطف الثانى (التجزئة فى ظل التبعية) :

هنا أتوقف قليلا عند هزيمة سنة ١٩٦٧ فقد جاءت تلك الهزيمة لتؤكد هذا الاستيعاب ولتكشف هذه التبعية ، وقد يستغرب القارىء اذا علم بأن الدول العربية الاخرى التى لم تحدث فيها انقلابات عسكرية كالسعودية ، والاردن ، وتونس ، والمغرب ، والكويت تشترك بدرجات متفاوتة مع الدول التى تحكمها الانظمة العسكرية فى ملامح وعناصر هذا القائم وهى الدول التي تصور عادة على أنها دول رأسمالية أو شبه أو ذات اقتصاد حر أو مفتوح وذات مؤسسات برلمانية ، يبدو أن أيا من هذه الصفات لم يمنعها من الاشتراك فى تحقيق الوضع القائم الجديد الذى هو من سمات مرحلة الامن الامريكى ان الاحداث التى حاولنا تخطيها فى الفترة السابقة على الهزيمة الساحقة للعرب سنة ١٩٦٧ تلك الهزيمة التى تمثل منعطفا تاريخيا حقيقيا فى مجرى هذه الاحداث لم تهيىء للوضع القائم بشرعيته الجديدة ان يستقر نهائيا ، وهناك عدد من الاسباب التى يمكن أن تعد مسئولة عن ذلك ولكن سببين مهمين من هذه الاسباب يجب ان يحظيا باهتمامنا الآن : عبد الناصر والتيار الناصرى أولا ، وحركة المقاومة الفلسطينية ثانيا ، هاتان الظاهرتان شكلتا تحديا ملموسا للامن الآمريكى فى درجات متفاوتة فى فترات مختلفة وبفوضوية ملفتة للنظر .

---

* وفى بعض الاحيان يقال « اشتراكية الدولة » لاداء نفس المعنى ، وما هذه التسمية فى الحقيقة الا تناقض فى الالفاظ تعكس درجة التخبط الايديولوجي الذي يقع فيه بعض الكتاب عند معالجة النظم العسكرية .

واذا كانت هزيمة سنة ١٩٦٧ هزيمة لكل العرب فهى هزيمة ساحقة لهذين التيارين بشكل خاص ، وقد جاءت هذه بشكل متزامن مع النتائج الاولية لمحاولات تثبيت الوضع القائم وفرض شرعيته

وفيما يلى اجمال لاهم هذه النتائج من وجهة نظرنا :

١ ـ لقد كان من أهم نتائج احتكار مصادر القوة والسلطة فى المجتمع تفريغ معظم القضايا الحيوية ومعضلات التنمية من محتواها السياسى مثلا : كل ما هو سياسى وخارج الاطار أو الخط العام الذى وضعته السلطة هو اخلال بالامن القومى .

٢ ـ خلو ساحة العمل السياسى من المعارضة ، اى ان قصر المساهمة السياسية على المؤيدين أو اللاجناليين من التكنوقراط والمنتفعين بالسلطة قد حرم الفئات الحاكمة نفسها من البدائل الجدية ومن القاعدة الجماهيرية الواعية ولا نقصد هنا التأييد الفوغائى .

٣ ـ وفى غياب المشروع التنموى الشامل وبفعل العاملين السابقين فقد توقفت أو كادت عملية التنمية الحقيقية ، وهذا ينعكس بوضوح فى تخبط الاجراءات والتشريعات وفى ضعف القابلية على المناورة وفى محدودية الخيارات .

٤ ـ التوسع الهائل فى البيروقراطية المركزية (بما فى ذلك القطاع العام) للدولة بدون ضوابط عقلانية أو ضمانات دستورية مما جعل الدولة تسيطر بشكل مركزى على مقدرات البلاد والجماعات والافراد على حد سواء وبذلك أصبح الجميع عرضة للبطش والتعسف البيروقراطى بالاضافة الى العنف المسلح .

وهكذا فقد خدمت هذه النتائج كخلفية أساسية لهزيمة عام ١٩٦٧ وتزامنت معها وتأتى الأحداث التى أعقبت عام ١٩٦٧ لتؤكد هذه النتائج وترسخها وهذا ينطبق على الاغلبية الساحقة الدول العربية كتلك التى تحكمها أنظمة « الحكم التقليدية » والتى تحكمها أنظمة « الحكم العسكرى » .

الاسباب المباشرة لهزيمة عام ١٩٦٧ :

قبل أن نتطرق الى نتائج هزيمة عام ١٩٦٧ دعونا نتساءل عن ماهية الاسباب المباشرة للهزيمة التى تمت بهذا الشكل وبهذا المستوى،

قد يقول قائل بأن تجزئة البلاد العربية وانقسامها على نفسها أحد هذه الاسباب وهـــذا صحيح ، ومن الاجدى ان نصنفه كسبب غـير مباشر للهزيمة العسكرية وقد يقول قائـل بأن الافتقار للديمقراطية والقهـر السياسى والاقتصادى ... والاجتماعى الذى يعانى منه العرب أحـد هذه الاسباب واذا كان هـذا صحيحا فانـه أيضـا سبب غـير مباشر للهزيمـة .

ان اكثر التفسيرات شيوعا للاسباب المباشرة لهزيمة العرب عـام ١٩٦٧ هـو :

أ ـ ان العرب لم يكونوا مستعدين لهذه الحرب .

ب ـ ان اسرائيل استغلت عنصر المفاجـأة أحسن مـا يكـون الاستغلال .

جـ ـ ان اسرائيل قد استفادت من كونها هى البادية بالهجوم .

وآمل أن يقوم من له الخبرة فى الامور العسكرية ـ السياسية بتقييم هذا التفسير (ب)،(جـ) ويبدو لى أن حرب اكتوبر ١٩٧٣ قـد برهنت بشكل معقول على عـدم جدواهما فى التفسير اذ أن فى اكتوبر ١٩٧٣ قد حدث العكس : وهو ان العرب فى هذه الحالة هم الذين استغلوا عنصر المفاجأة وهم الذين كانوا البادئين بالحرب ولكن نتيجة الحرب لم تتغير فى نهاية المطاف اما عن الشق الاول (أ) لهذا التفسير فهو قاصر عن الاقناع وحتى عن التبرير ، فالسؤال الذي يتبادر الى الذهن مباشرة هو لماذا لم يكن العرب مستعدين ؟ وليس أخذ عدم استعدادهم كحقيقة نهائية واذا لم يكن فى الصفحات السابقة ما يكفي لتوضيح اسباب عدم استعداد العرب للحرب او لاي تهديد خارجي نكون قد فشلنا فى مهمتنا فشلا ذريعا ، ويخيل الي الان ـ بالنظر الى الوراء ـ بأنه كان مـن المفروض ان تكون نتيجة حرب سنة ١٩٦٧ معروفة حتى قبل ان تقع الحرب لو ان المقولة التالية قد اخذت مأخذ الجد وهي :

« ان الجيوش العربية ، فى مرحلة الامن الامريكي شأنها شـأن جيوش العالم الثالث ليست معدة لحروب نظامية ضد مصالح الدول الكبرى ، انما هى معدة للقمـع الداخلى وللنزاعات المحليـة وللزهـور القومي كأحد رموز الاستقلال ولو كانت غير ذلك لشكلت خطرا عـلى مصالح الدول الكبرى التي تزودها بالسلاح » .

ومهما يكن من امر فان هزيمة العرب فى حرب ١٩٦٧ كانت ايذانا بتغيير مسار مجرى الاحداث الذي تكاملت ملامحه بين سنة ١٩٤٩ ، سنة ١٩٦٣ ، فقد ذكرنا ان الناصرية ، وحركة المقاومة الفلسطينية كانتا اول ضحية لهذه الحرب ، ولكن القضاء عليهما لم يستكمل فعليا الا فى عام ١٩٧٠ أي بعد ثلاث سنوات وحتى نهاية الحرب ، ففى ذلك العام اجبرت حركة المقاومة على ترك الاردن وبذلك تكون قد حجمت كقوة مقاتلة ولم تعد تشكيل نفسها فى لبنان الا لتضرب فى عام ١٩٧٢ ثم عام ١٩٧٥ ثم عام ١٩٧٨ ثم عام ١٩٨٢ .

اما الناصرية بعد عبد الناصر فقد لاقـــت نفس المصير بمجيء السادات وبروز القيادات العسكرية اليمينية التى كانت كامنة فى الجيش المصري التي تسلمت حكم مصر بشكل فعلي بعد حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ وقد غيرت هذه القيادات نفسها باستحداث سياسة ما يسمى بالانفتاح والتحالف العلني مع الغرب الذي كان من نتائجه الصلح مع اسرائيل عام ١٩٧٨ وبعزل مصر عن العرب باخراجها من حلبة الصراع الاقليمي ، وقد تبلور الاتجاه (او الانحراف ان شئت) الى اليمين السياسي لدى الفئات الحاكمة فى البلاد العربية باستلام حكام المملكة العربية السعودية زمام القيادة او على الاقل بروزهم كقوة فاعلة ومحولة فى المنطقة بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وقد أصبح هذا الاتجاه الى اليمين بقيادة السعودية من التمكين والسيطرة على مجريات الاحداث بعد اكتوبر ١٩٧٣ بحيث قضى على تردد العسكر وتأرجحهم ذات اليمين وذات اليسار واصبح من غير الممكن لاي نظام حاكم فى مركز الاحداث او قربه الاستمرار في الحكم بدون التوصل الى صيغة مرنة ان لم تكن ايجابية للتعايش السلمي معه ، كما كان الحال مع عبد الناصر فى زمان الناصرية قبل سنة ١٩٦٧ وهذا اذا هو الوضع القائم الجديد بشرعيته الجديدة ولكن على اي اساس تقوم هذه الشرعية الجديدة اذا كانت شرعية الوضع القائم فى زمن العسكر قد قامت على العنف المسلح والروح القومية .

الشرعية الجديدة وحماية الوضع القائم :

ان هذه الشرعية الجديدة تقوم على العنف المسلح وعلى القبول نهائيا بواقع التجزئة والانقسام اي على الاعتراف بسيادة الدول العربية

---

* هذا لا يعنى بطبيعة الحال ان هذه الحالة هى حقيقة ثابتة لا تتغير ، وانما يعنى بدون شك أن الجيوش ليست مؤسسات منفصلة قائمة بذاتها فهى جزء من نظام اجتماعي وسياسي واقتصادي متخلف مبنى عى الارهاب والتسلط والعنف المسلح .

بحدود متعارف عليها وعلى ادراك ان للفئات الحاكمة فى البلاد العربية مهما اختلفت مذاهبها السياسية مصلحة مشتركة فى حماية الوضع القائم ، وتقوم كذلك او بشكل خاص على « التفاهم » مع الغرب بدلا من « الكفاح » ضد مصالحه اي على ادراك ان مصلحة الفئات الحاكمة فى البلاد العربية لا بد ان تلتقي فى النهاية مع مصالح الغرب . . . *

وفى هذا السياق فقط يمكن ان نفهم عودة الصيغ الطائفية والقبلية والاقليمية الى الظهور فى العراق عام ١٩٦٨ وفى سوريا عام ١٩٧٠ ، وفى لبنان عام ١٩٧٥ ، وفى الخليج عام ١٩٧٨ .. الخ كأسلحة لانقاذ البلاد العربية توازنها فى سبيل الحفاظ على الوضع القائم الجديد واكسابه شرعية جديدة ، وكأطار للعملية السياسية فى غياب الديمقراطية ومؤسساتها وادواتها ، وهكذا تكون عمليتا الاستيعاب والتبعية قد اكتملتا فى اغلب البلاد العربية فى ظل الامن الامريكي والذي تبقى الان هو الوصول الى « الامن والاستقرار » فى المنطقة والذي لن يتأتى الا بحل القضية الفلسطينية . وفجأة وكما بدأت توقفت الانقلابات العسكرية او كادت فلم يحدث فى السنوات الثمان الماضية ــ حسبما هو موضح فى جدول رقم (١) ــ سوى انقلابين ناجحين فى اطراف البلاد العربية (اليمن) وليس فى دول المركز التي لم تشهد انقلابا عسكريا ناجحا فى السنوات الثلاث عشرة الماضية .

الانظمة الحاكمة وتنمية الحركة الدينية :

لقد بذلت الانظمة الحاكمة جهودا خاصة لتنمية الحركة الدينية والاجنحة المتطرفة منها فى السبعينات دعما للتحول نحو اليمين وضمانا ضد عودة الحركات القومية والاشتراكية وضد اية محاولة لتحدي الوضع القائم ويتضح هذا الطابع اليميني المتطرف فى الحركة الدينية فى السبعينات فى طغيان التفكير الغيبي وفى محاولة توجيه الانتباه للخلافات المذهبية او حتى اختلاقها بعد ان كان الانتباه يوجه الى قضايا مثل الاشتراكية فى الاسلام او الفكر التقدمي فى الاسلام ..... الخ .

وقد وصلت حالة الانحسار فى حركات المعارضة القومية والاشتراكية حدا مريعا من التفكك والانهيار فى اوائل الثمانينات وبلغ

---

* وليس من المستبعد ان تكون سياسة الانفتاح على الغرب « نموذجا في دول اخرى يحكمها العسكر فى المستقبل القريب كما كان نظام الحزب الواحد المصري باتجاهه الاشتراكي مثالا لا تحتذى الى امد قريب وقد بدأ السودان بهذا فعلا » .

انعزال فئات واسعة من السكان عن العملية السياسية وتفريغ القضايا الحيوية فى محتواها السياسي الى درجة اللامبالاة والشلل بحيث لم نجد من يتصدى لغزو اسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ (فى يونيو ١٩٨٢) حتى ولو بالكلام وستكشف الايام ماذا كان هذا التاريخ يمثل منعطفا جديدا فى مسيرة تاريخنا المعاصر .

وانه لمن المحزن حقا ان نرى ان حصيلة ٦٢ سنة من النضال والعمل الشعبي ، (من سنة ١٩٢٠ ـ ١٩٨٢) قد ضاعت هباء ، وان تتهاوى المسلمات اليقينية التي استفرقت كل هذا الوقت لتجد لها مكانا فى الوعى الجمعى العربى وكأنها اضغاث احلام وليعود العرب عام ١٩٨٢ بما كان بالامكان انجازه فى عام ١٩٢٠ .

الخلاصـــة

لقد حاولنا فى الصفحات السابقة ان نقترح منهجا فى التفكير وفى تحليل الاحداث التى تقع حولنا على افتراض أنه بدون منهج موضوعى فى التفكير والتحليل لن يكون بمقدورنا ان نفهم الاحداث المحيطة بنا وبالتالي عجزنا عن تحليلها ان اولى مواصفات هذا المنهج هو الموضوعية اي التجرد والبعد عن الانفعال والتحيز ، ولكن هذه الموضوعية يجب ان لا تستخدم كستار لاخفاء ان التحليل يطلق من تصور ايديولوجي معين لهذه الاحداث واسلوب تحليلها .

ان أهم الفوائد التي تجنى من المنهـــج الموضوعـــي في التفكير والتحليل بالاضافة الى قدرته الكبيرة على التفسير والتحليل هو ترسيخ الادراك بأن الاحداث تقع فى سلسلة غير منطقية بل مترابطة وان فهمها لن يتم الا بالكشف عن ترابطها وتلازمها الفعلـي فى الواقع وليس فى تفكيرنا وتصوراتنا ولذلك نسعى من خـلال هذا المنهج الـى تصنيف المعلومات بالرجوع الى اصولها والى اكتشاف هذه المجموعة المحدودة من الضوابط والمنظمات التي تعطى للاحداث نظاما واتجاهات عميقة مستترة خلف نظم الحكم وتعاقب الحكام وجلبه التمردات والانقلابات وزحمة الصراعات والتحالفات .

وهذا المنهج المقترح هو واحد من مناهج اخرى ممكنة ، واريد ان اضرب المثل لزيادة التوضيح .

مثلا : قد يستعمل عدة اشخاص منهجا واحدا فىالتفكير والتحليل ولكنهم قد يختلفون فى الاستنتاجات ، وهذا امر وارد ومقبول ، ولكن الفائدة التي تجنى من استخدام منهج موضوعي ـ خلافا لعدم وجود هذا المنهج هو اننا نستطيع ان نقبل او نرفض أيا من هذه الاستنتاجات

اذا كان لا يطابق الافتراض الاصلي الذي بني عليه هذا المنهج ، وهكذا لا تصبح بعد ذلك اي من هذه الاستنتاجات مسلمات يقينية لانها غير مبنية على منهج واضح يتيح لنا ان نقبل او نرفض ـ وبذلك تجرد الاحداث الواقعية من الخرافات والاساطير والعموميات والغيبيات .

المراجع :

١ ـ نوال عبد العزيز راضي : أضواء على الحركة العمالية المصرية (١٩٣٠ ـ ١٩٤٥) القاهرة : دار النهضة العربية ١٩٧٧ .

٢ ـ عبد القادر ياسين : تاريخ الطبقة العاملة الفلسطينية (١٩١٨ ـ ١٩٤٨) بيروت : مركز الابحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٨٠ .

٣ ـ كمال مظهر أحمد : الطبقة العاملة العراقية : التكون وبدايات التحرك بغداد ـ دار الرشيد ١٩٨١ .